مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد– مجلة علمية محكمة– ديسمبر ٢٠٢٣

جهود ابن ريّان البلاغية
من خلال كتابه: الرّوض الريّان في أسئلة القرآن

الدكتور/ عمر بن عثمان بن محمد الملا(*)

ملخص البحث:

يقوم هذا البحث على بيان الجهود البلاغية في كتاب "الروض الريّان في أسئلة القرآن" للشيخ شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريّان المتوفى سنة ٧٧٠ هـ، وقد اشتملت مادة هذا البحث على تمهيد عرّفتُ فيه بالمؤلّف وكتابه، ثم تلى ذلك ثلاثة مباحث تدور على المسائل البلاغية في هذا الكتاب قمتُ باستخراجها منه وشملت مائة مسألة، الأول: بلاغة الحروف القرآنية، والثاني: بلاغة الكلمة القرآنية، والثالث: بلاغة التراكيب القرآنية، وقد تبين فيها منهج المؤلف من إثارته للطيف من مسائل البلاغة واستيعابه لأكثر الأنواع البلاغية مع عدم عنايته بالتصريح بالمصطلحات البلاغية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم – البلاغة – الروض الريان – ابن ريان

Abstract:

This research is based on an explanation of the rhetorical efforts in the book “Al-Rawd Al-Rayyan fi Questions of the Qur’an” by Sheikh Sharaf Al-Din Al-Hussein bin Suleiman bin Rayan, who died in the year 770 AH. The material of this research included an introduction in which I introduced the author and his book, then this was followed by three sections revolving around rhetorical issues. In this book, I extracted it from it and included one hundred issues. The first: the eloquence of the Qur’anic letters, The second: The eloquence of the Qur’anic word, and the third: The eloquence of the Qur’anic compositions, in which the author’s approach became clear from his raising of a range of rhetorical issues and his understanding of most rhetorical types, while not caring about clarifying rhetorical terminology.

Key Words: The Holy Qur’an - Al-Balagha - Al-Rawd Al-Rayyan - Ibn Rayan

مقدمة:

الحمد لله ذي الجلال والكمال الذي تخشع من خشيته الجبال، وتستقيم بطاعته الأعمال، وتستنير بكلامه القلوب والأحوال، وصلاة وسلاماً ما تعاقب ليل ونهار على نبي الرحمة والوقار، وعلى آله وأزواجه الأطهار، وأصحابه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان من الأبرار، ثم أما بعد.

فإنّ خير ما تُفنى فيه الأعمار، وتقضى في مدارسته ساعات الليل والنهار، كتاب الله سبحانه وتعالى، المعجز بمبانيه ومعانيه، ونظمه وأساليبه، وفنونه وأفانينه.

وهذه دراسة في البلاغة القرآنية تقف مع أحد كنوز التراث العربي قد ضمَّ إشارات متنوّعة للطائف كتاب الله، وتوافر على نكات متعدّدة للبيان المعجز، وذلك لأحد جهلبذة القرن الثامن الهجري الزاخر بالعلم والعلماء، وهو كتاب: "الروض الريّان في أسئلة القرآن" للشيخ شرف الدين الحسين بن سليمان بن ريّان.

(*) أستاذ البلاغة والنقد المساعد – قسم اللغة العربية كلية الآداب – جامعة الملك فيصل

إنّ هذا البحث يعرض أساليب النظم القرآني في كتاب "الروض الريّان" برصد الدلالات البلاغية للحروف والكلمات والتراكيب القرآنية في هذا الكتاب. ومن خلال ذلك تتبين الجهود البلاغية لابن ريّان وتأثّره بالمفسّرين البلاغيين في مسائل الكتاب.

ولذا جاءت هذه الدراسة البلاغية بعنوان: "جهود ابن ريّان البلاغية من خلال كتابه الروض الريّان في أسئلة القرآن".

وقد اقتضت خطة البحث أن يشتمل على مقدّمة وتمهيد وثلاثة مباحث ثم الفهارس:

فأما المقدّمة فقد تحدثت فيها عن خطة البحث، وأما التمهيد فقد اشتمل على لمحة عن البلاغة القرآنية، ثم نبذة عن الشيخ شرف الدين ابن ريّان، ثم ومضة عن كتاب الروض الريّان.

وأما المبحث الأول فقد كان في بلاغة الحروف القرآنية في الروض الريّان.

وأما المبحث الثاني فكان في بلاغة الكلمة القرآنية في الروض الريّان.

وأما المبحث الثالث فقد اشتمل على بلاغة التراكيب القرآنية في الروض الريّان.

ثم جاءت خاتمة الدراسة وثبت المصادر والمراجع.

هذا وأتوجه لربّي المستعان بالدعاء أن يجعل هذا البحث خالصاً له سبحانه، وأن يكون من الدراسات النافعة في حقل البلاغة القرآنية، وأن يعفو عما جرى به القلم من الخطل، وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

تمهيد:

أ- لمحة عن البلاغة القرآنية:

تُعدّ البلاغة القرآنية نوعاً من أنواع الإعجاز القرآني التي منها الإعجاز التشريعي والإعجاز الغيبي والإعجاز التاريخي والإعجاز العلمي وغير ذلك. وأنواع إعجاز القرآن كثيرة لا تعدّ ولا تحصر.

يقول العلّامة السيوطي: "وقد أفرد علماؤنا رضيَ الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن، وخاضوا في وجوهِ إعجازِه كثيراً، منهم الخطابي، والرمّاني، والزَّمْلَكاني، والإمام الرازي، وابن سراقة، والقاضي أبو بكر الباقِلاني، وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين.

والصّواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكي في المفتاح: اعلم أنّ إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة. وكما يدرك طيب النّغم العارض لهذا الصّوت، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتّمرين فيهما"(١).

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، "معترك الأقران في إعجاز القرآن". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ) ١: ٥.

ولكنّ الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم هو النوع للذي تحدّى القرآن به العرب البلغاء للذين نزل كتاب الله في عصرهم وبلغتهم فأعجزهم – مع علو كعبهم في الفصاحة والبيان – عن أنْ يأتوا بمثله ولا بعشر سور أو بسورة واحدة كما أخبر بذلك النظم الكريم. قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]

وللعرب المجازات في الكلام –كما يقول ابن قتيبة– ومعناها: طرق القول ومآخذه. ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار، والإخفاء، والإظهار، والتعريض، والإفصاح، والكناية، والإيضاح، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع، والجميع خطاب الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص .. وبكل هذه المذاهب نزل القرآن(١).

وهذا يعني أنّ لغة العرب وطريقة كلامهم هي لغة القرآن الكريم المعجز..

يقول ابن ريّان: "كلام العرب ينقسم إلى ما يفهم معناه سريعاً ولا يحتمل غير ظاهره، وإلى ما هو مجاز وكناية وتلويح وإشارة، والقسم الثاني هو المستحسن عندهم البديع في كلامهم، فورد القرآن بهما تحقيقاً للإعجاز"(٢).

ب- نبذة عن الشيخ شرف الدين ابن ريّان:

هو الْحُسَيْن بن سُلَيْمَان بن أبي الْحسن شرف الدّين أَبُوعبد الله بن القَاضِي جمال الدّين أبي الرّبيع بن ريّان الطَّائِي.

ولد شرف الدّين بحلب سنة اثْنَيْن وَسَبْعمائة، وَسمع البُخَارِيّ من ابْن مشرف وست الوزراء بِدِمَشْق حضوراً، وَسمع المقامات على ابْن الصايغ، وَقَرَأَ بحلب الحاجبية على الشَّيْخ علم الدّين طَلْحَة، وَقَرَأَ على الشَّيْخ كَمَال الدّين بن الزملكاني أَوَائِل ضوء الْمِصْبَاح.

وَحفظ الْقُرْآن الْعَظِيم صَغِيراً وَصلّى بِهِ، وَنقل بعض الرِّوَايَات، وَلما قدم مَعَ وَالِده إِلَى صفد قَرَأَ على الشَّيْخ نجم الدّين الصَّفَدِي النَّحْو، وطالع وَحصل وَكتب وأتقن الْإِعْرَاب وَمهر فِيهِ، ونظم فِي البديع كتابا سَمَّاهُ زهر الرّبيع.

وَأما ذهنه فيتوقّد ويعلو فِي الذّكاء إِلَى أَن يسمو على الفرقد وَمَا يَخْلُو معرفَة مسَائِل فِي أصُول الدّين وَغير ذَلِك من عقليات فِي الطبيعي وَغَيره، وَفِيه هشاشةٌ وطلاقة وَجه وكرم نفس وَعدم مبالاة بحوادث الزَّمَان. قال الصفدي: قل أَن رَأَيْته اغتاظ من شَيْء(٣).

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة، "تأويل مشكل القرآن". تحقيق إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية) ص٢٢.

(٣) الشيخ شرف الدين الحسين بن ريّان، "الروض الريّان في أسئلة القرآن". تحقيق الدكتور عبد الحليم بن محمد السلفي، (ط١، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥ه) ١: ٢٣.

(١) خليل بن أيبك الصفدي، "الوافي بالوفيات". تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ) ١٢: ٢٢٨. وانظر: يوسف بن تغري بردي الظاهري، "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي". تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، تقديم الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ٥: ٧٩-٧٧.

وجاء في الدّرر الكامنة لابن حجر: الْحُسَيْن بن سُلَيْمَان بن أبي الْحسن بن سُلَيْمَان بن ريّان شرف الدّين الطَّائِي، موقع الْإِنْشَاء بحلب، ولد فِي شَوَّال سنة ٧٠٢، وَكَانَ أَبوهُ نَاظر الدولة فَنَشَأَ هُوَ نَشأ حَسَنَة وتعانى الْآدَاب، وَكَانَ صَادِق اللهجة حسن المجالسة رَقِيق الْحَاشِيَة، ونظم زهر الرّبيع فِي البديع فِي سَبْعمِائَة بَيت. مَاتَ فِي سنة ٧٧٠، وأرّخه ابْن حبيب سنة ٧٦٩، وَهُوَ الْقَائِل:

كَأَن الْهلَال بجو السَّمَاء وَقد قَارب الزهرة النيّرة
سوار لحسناء من عسجد على قفله رُكّبت جوهرة [١]

ج- ومضة عن كتاب الروض الريّان في أسئلة القرآن:

كتاب "الروض الريّان" من المصنّفات التي اعتنت بكتاب الله تعالى، وقد جاء بطريقة السؤال والجواب من أول الكتاب إلى آخره، كلّ هذا حسب موضوع الكتاب والمعوّل عليه في تأليفه، وهو المسائل القرآنية الواردة في مجال الحروف والكلمات والتراكيب والأساليب.

إنه في الحقيقة كتاب يرصد عبر هذه الطريقة فنونَ النظم القرآني في وحداته اللغوية وأساليبه البلاغية، ويكشف عن دلالات الحروف والألفاظ والتراكيب القرآنية.

ولهذا الكتاب وقفات بليغة تجلّي جوانب عظيمة من الإعجاز البلاغي للقرآن.

جاء في أسئلة سورة الواقعة: "من الألفاظ ما يكون استعماله مجموعاً أعذب من استعماله مفرداً، كالأكواب لم تكد العرب تنطق به في كلامها إلا مجموعاً، ومن الألفاظ ما يكون استعماله مفرداً أعذب وأفصح من استعماله مجموعاً كالكأس، ومن هنا يستدلّ على فصاحة ألفاظ القرآن العزيز حيث وردت الأكواب مجموعة، والكأس مفردة، ولم يرد ذلك في القرآن إلا على هذا الأسلوب الحسن"[٢].

وقد تبيّن في هذا البحث مدى تأثّر ابن ريّان رحمه الله في كتابه "الروض الريّان" بالمفسّرين البلاغيين كالزمخشري والفخر الرازي والبيضاوي في كشف الدلالات البلاغية لمسائل الكتاب التي تدور على جميع سور القرآن الكريم، بالإضافة إلى جهود ابن ريّان البلاغية التي ظهرت في أجوبته على مسائل النظم القرآني بكل أساليبه سواء في الحروف والكلمات والتراكيب.

ولكن العجب من عدم ذكر ابن ريّان مع المفسرين البلاغيين وعدم النقل عنه لدى العلماء اللاحقين وللباحثين المعاصرين فيما علمت، هذا مع أنّ كتابه "الروض الريّان" قد احتشد الكثير من أوجه المناسبات البلاغية والتعليلات المعنوية لأساليب النظم القرآني ومسائله، وهو ما تعرّض له هذا البحث بالبيان والتفصيل.

كما أنني لاحظت أنّ محقق "الروض الريّان" الدكتور عبدالحليم بن محمد السلفي مع ما بذله من جهد مشكور في دراسة الكتاب في نواح كثيرة إلا أنه لم يهتم بإبراز بلاغة المؤلف ابن ريّان ولم

(٢) أحمد بن حجر العسقلاني، "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة". مراقبة محمد عبد المعيد ضان، (ط٢، حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢ه) ٢: ١٦٨.

(١) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٦٩.

يكشف عن هذا الجانب المهم من شخصيته العلمية، وهو ما يلاحظه المتأمّل في هذا البحث، وربما كان عذر محقق الكتاب أنه يكتب في تخصص التفسير وعلوم القرآن وليس في البلاغة.

ولعل من سمات منهج ابن ريّان في هذا الكتاب تأكيده على قوانين لغوية، ومن ذلك ما يتضح عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢] يقول ابن ريّان: الضلالة والغواية واحد، فما للفائدة في عطف أحدهم على الآخر؟ وأجاب بأنّ المراد: ما ضلّ في قوله ولا غوى في فعله، وقيل: الضلال ضده الهدى، والغواية ضدها الرّشد، فهما متغايران، وقيل: هما بمعنى واحد، وإذا اتفق المعنيان واختلف اللفظان جاز العطف، كقوله تعالى: (شرعة ومنهاجاً) تفنناً في الكلام أو تأكيداً[١].

ومن منهج ابن الريان أنه يلخص كل آراء العلماء السابقين وأقوالهم ويرتبها بحسب وجاهتها وقوّة أبوابها في البلاغة ولا ينسبها إلا في بعض الأحيان. ومن ذلك كلامه على الشاهد السابق.

ومن ذلك أيضاً ما يتضح عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]

يقول ابن ريّان: (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) ثم قال: (بالمؤمنين رؤف رحيم) قدّم (عزيز) و(حريص) على معمولهما، وأخّر (رؤف رحيم) عن معمولهما، وهو (بالمؤمنين). وأجاب من وجهين:

الأول: في تقديم (بالمؤمنين) فائدة الحصر، يعني لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين.

الثاني: ليناسب رؤوس الآي[٢].

والوجه الأول من أسرار التقديم والتأخير في الآية ذكره الفخر الرازي[٣].

ومما يستثنى من هذا المنهج عند ابن ريان أنه خالف في ترتيب الأجوبة بما هو أولى إذ قدم السر اللفظي على المعنوي وذلك في حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣]

يقول ابن ريّان: هلّا قال: (وليعلمن الذين كذبوا) كما قال: (الذين صدقوا) أو قال: (الصادقين) كما قال: (الكاذبين). وأجاب من وجهين:

الأول: إنّ اختلاف اللفظ تفنّن في الفصاحة.

الثاني: إنّ الفعل الماضي لا يدلّ على التكرار والثبات، واسم الفاعل يدلّ عليهما، تقول: زيد نفذ أمره، وزيد نافذ الأمر، وهذه الآية نزلت في قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكليف، وقد فارقوا أقواماً مستديمين للكفر والكذب مستمرين عليهما، فناسب أن يقال في حق المؤمنين: (صدقوا) بصيغة الماضي بمعنى أنه وجد منهم الصدق، ويقال في حق الكافرين: (الكاذبين) بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الدوام والثبات، لرسوخ ذلك فيهم، وجاء في سورة المائدة: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم)

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٥٠.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٠٢.

(٤) انظر: محمد بن عمر الرازي، "التفسير الكبير". (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ ه) ١٦: ١٧٩.

لأنه في ذلك اليوم يكون الصدق قد رسخ في قلوبهم، وهو يوم القيامة، ولا كذلك في صدر الإسلام، وهو جواب حسن لطيف[١] .

ومن مزايا منهج الكتاب عند ابن ريان ما يلاحظ من توافر عنصر الإثارة في أسئلته وبهذا يكون قد وفّق في اختيار طريقة العرض التي هي السؤال والجواب وأن اختياره لها لم يكن اتفاقاً.

ومن شواهد ذلك حديثه عن قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]

يقول ابن ريّان: السورة مشتملة على ذكر نعم الله وتعديدها، وفي الآيات المقرونة بقوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذّبان) ما ليس بنعمة، فكيف أكّد بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذّبان) وذلك مثل قوله تعالى: (كلّ من عليها فان) (سنفرغ لكم أيها الثقلان)، (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام)؟

وأجاب بأنّ هذا التحذير فيه ردع عن المعاصي بما فيه من الزواجر والمواعظ التي تكفّ عن القبائح والسيئات وتبعث على التوبة فهي في الحقيقة من أعظم النّعم[٢].

المبحث الأول: بلاغة الحروف القرآنية في الروض الريّان

المطلب الأول: حروف الجر

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤ – ١٠٥]

وهنا يتساءل ابن ريّان: كيف تعدّى (حقيق) بـ (على)؟

وأجاب بأنها بمعنى الباء، كقوله تعالى في القصّة: (ولا تقعدوا بكل صراط) فكما جاءت الباء هناك بمعنى (على) جاءت (على) هنا بمعنى الباء، وفيه وجه آخر أن يضمّن (حقيق على) معنى الحرص، فكأنه قال: حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق، ومثله ما أنشده سيبويه في الكتاب:

إذا تغنّى الحمام الورق هيّجني ولو تغرّبت عنها أم عمّار

ضمّن (هيجني) معنى (ذكّرني) فنصب بها (أم عمّار)[٣] .

وهذه الأقوال التي أوردها ابن ريّان ذكرها المفسرون في تفسير هذه الآية[٤]، بناء على القول بتناوب الحروف والقول بالتضمين.

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٠٤.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٦٢.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٦٣، ٦٤.

(١) انظر: محمود بن عمر الزمخشري، "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، (ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ ه) ٢: ١٣٧، الفخر الرازي، التفسير الكبير ١٤: ٣٢٦، عبد الله بن عمر البيضاوي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل". تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ ه) ٣: ٢٦، أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، "البحر المحيط". تحقيق صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠ ه) ٥: ١٢٨، الحسين بن عبد الله الطيبي، "فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)". مقدمة التحقيق إياد محمد الغوج، القسم الدراسي د. جميل بن عطا، (ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤ ه) ٦: ٥٠٢، أبو السعود محمد العمادي، "إرشاد

والذي يظهر أنّ المختار في السر البلاغي في التعبير القرآني بـــــ (على) دون (الباء) في الآية يتمثل في كونها على بابها في إفادة معنى الاستعلاء، ويكون المراد هو تعظيم مكانة الحق الذي جاء به موسى عليه السلام وبيان علو شأنه ورفعة درجته، وهو ما يناسب السياق القرآني الذي ذكر الرسالة والبيّنة.

قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود: ٦]

يقول ابن ريّان: الرزق من الله تفضّل، فلأي فائدة ذكر لفظ (على) الدالة على الوجوب؟

وأجاب بأنه هو تفضّل، ولكن ذكره بلفظ الوجوب تطييباً للقلوب، ليثق الإنسان وغيره بحصول رزقه، وقيل: (على) بمعنى (من)، أي من عند الله رزقها(١).

والسر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان هو على كون (على) تفيد معناها الأصلي وهو الاستعلاء، وقريب منه ما جاء في كلام أبي السعود قال: " لتكفّله إياه تفضلاً ورحمةً وإنما جيء به على طريق الوجوبِ اعتباراً لسبق الوعدِ وتحقيقاً لوصوله إليها البتة وحملاً للمكلّفين على الثقة به تعالى والإعراضِ عن إتعاب النفس في طلبه"(٢).

قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: ٦٥]

وهنا يسأل ابن ريّان عن قوله تعالى: (واصطبر لعبادته) هلاّ عدّي بـــــ (على) كقوله تعالى: (واصطبر عليها).

وأجاب بأنه جعلت العبادة بمنزلة القرن كقولك للمحارب: اصطبر لقرنك، أي اثبت له فيما يورد عليك من شداته، وأريد أنّ العبادة تورد عليك شدائد ومشاق فاثبت لها ولا تهن ولا يضق صدرك عند لقاء عدوانك(٣) .

وهذا السر البلاغي الذي أجاب به ابن ريّان عن التعبير القرآني بـــــ (اللام) دون (على) ذكره الفخر الرازي والبيضاوي (٤).

والذي يظهر أنّ (اللام) على معناها الأصلي وهو المُلكية، وكأنّ الاصطبار صار مُلكاً خاصّاً لعبادة الله تعالى، وفي هذا تصوير بليغ لأهمية بذل المصابرة في سبيل العبادة.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ [النور: ٣٠]

وهنا يتساءل ابن ريّان: ما الفائدة في دخول (من) المفيدة للتبعيض ولم ترد في حفظ الفرج؟

العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت: دار إحياء التراث العربي) ٣: ٢٥٧، محمد الطاهر بن عاشور التونسي، "التحرير والتنوير". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ ه) ٩: ٣٩.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١١٦.

(٣) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٤: ١٨٦؛ وانظر: الطيبي، "فتوح الغيب"، ٨: ١٨.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٤٠، ١٤١.

(١) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢١: ٥٥٥؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٥.

وأجاب بأنّ البلوى في حفظ النظر عسرة، والاحتراز من كفّ البصر صعب، فناسب دخول (من) التبعيضية في غض البصر دون غيره[١] .

وهذا السر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان في التعبير بـــ (من) مع غضّ البصر دون غيره أشار إليه الزمخشري[٢] . وقد جاءت (من) على معناها الأصلي وهو التبعيض.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: ٢٤]

قال ابن ريّان: ذكر في الهدى كلمة (على) والضلال كلمة (في) ما الموجب لذلك؟

وأجاب بأنّ المهتدي كأنه مرتفع مستعل على فرس جواد يركضه كيف شاء، فذكره بحرف الاستعلاء، والضالّ منغمس في الظلمة غريق فيها لا يدري أين يتوجّه[٣] .

وهذا السر البلاغي للتعبير بـ (على) و (في) ذكره المفسرون في تفسير هذه الآية[٤].

وقد جاءت حروف الجر (على) و (في) على معانيها الأصلية وهي الاستعلاء والظرفية، وهي المناسبة لسياق الآية الكريمة كما ذكر ابن ريّان.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [الشورى: ٢٠]

يقول ابن ريّان: أخبر تعالى أنه يزيد في حرث طالب الآخرة، وأما طالب الدنيا فيؤته منها، أي من البعض، ما الحكمة في ذلك؟

وأجاب بأنّ من واظب على العمل الصالح يطلب الآخرة تحصل له ملكة على فعل الخير فيضاعف الله جزاءه عن ذلك العمل، ومن كان همّه طلب الدنيا صارت له ملكة يتضاعف بها آماله وميله إلى حصولها، فيحصل على بعضها، فإنّ طلبه الدنيا لا نهاية له فيفوته نصيبه من الآخرة ولا يحصل من الدنيا إلا على القليل[٥].

وهذا الجواب عن سر التعبير بـ (اللام) و (من) قريب مما ذكره الفخر الرازي[٦].

والذي يبدو أنّ حروف الجر (اللام) و (من) جاءت على معانيها الأصلية، فناسب سياق الحديث عن حرث الآخرة التعبير بـــ (اللام) للدلالة على الملكية لأنّه هي التي فيها الفوز الحقيقي والفلاح الكامل، بينما ناسب سياق الكلام عن حرث الدنيا التعبير بـــ (من) الدالة على التبعيض لأنه مهما أصاب أحد من حرثها فهو بعض وقليل وليس كما في حرث الآخرة.

قال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: ٤-٥]

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٧٨.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٢٢٩؛ وانظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٦: ١٦٩؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٨: ٢٠٣.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٣٨.

(٥) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٥٨٢؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ٢٠٥، أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٧: ١٣٢، ١٣٣.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٩٤.

(١) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٧: ٥٩١.

قال ابن ريّان: نقل عن أنس وابن عباس: (الحمد لله على أنّ لم يقل: في صلاتهم)، وهو إشعار بالفرق بين قولهم: عن صلاتهم وبين قولك: في صلاتهم.

وأجاب بأنّ معنى (عن) أنهم ساهون عنها سهو ترك لها، وقلة التفات إليها، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطّار من المسلمين، ومعنى (في) أنّ السهو يعتريهم فيها لوسوسة شيطان، أو حديث نفس، وذلك لا يخلو منه مسلم(١).

وهذا الفرق في التعبير القرآني بـ (عن) و (في) نصّ عليه الزمخشري(٢).

والسر البلاغي للتعبير بـ (عن) الذي ذكره ابن ريّان هو على معناها الأصلي وهو المجاوزة، وفي ذلك التحذير والترهيب من مجاوزة الصلاة بالترك لها وعدم الاهتمام بها.

المطلب الثاني: حروف العطف

قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]

قال ابن ريّان: وخلق حواء من آدم سابق على خلقنا منه، فكيف عطف عليه بـ (ثم) التي للتراخي؟

وأجاب بأنّ المراد بـ (ثم) العطف الإخباري من غير نظر إلى تراخي المدّة، كما قال:

قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ثم قبل ذلك جدّه

وقيل: إنّ الله تعالى خلق آدم وأخرج أولاده من ظهره كالذرّ، وأخذ عليهم الميثاق، ثم ردّهم إلى ظهره، ثم خلق حواء بعد ذلك، و (ثم) على بابها(٣) .

وقريب من هذه الأقوال والتبريرات التي ذكرها ابن ريّان في التعبير بـ (ثم) ما ذكره الفخر الرازي عند تفسيره للآية(٤).

والذي أختاره أنّ (ثم) على بابها ومعناها الأصلي وهو التراخي كما ذكر ابن ريّان في القول الآخر الذي نقله في كلامه، لأن إفادة محض البعدية الذي يفيده الإخبار دون التراخي يحصل بغير (ثمّ).

قال تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]

وهنا يتساءل ابن ريّان: ما الفائدة في لفظ (ثم) في هذا المكان؟

وأجاب بأنّ فائدتها أن يتمهّل بالذكر، ليستقر ركوبه ويثبت قدمه ويطمئنّ قلبه على ظهر دابته أو فُلكه، بحيث لا يحصل منه الذكر قبل استوائها، فيكون قلق الفؤاد غير مستقر في ظهر الدابة، فيحصل الذكر غير كامل لأنّ الركوب على الفلك والأنعام خطر عظيم لولا أنّ الله تعالى سخّرها للإنسان(٥).

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٦٣٣، ٦٣٤.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٨٠٥.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٧٤.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٦: ٤٢٣؛ وانظر: الطيبي، "فتوح الغيب"، ١٣: ٣٤٣.

(١) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٠٠.

وفي هذا التوجيه الذي ذكره ابن ريّان في مناسبة إيثار حرف العطف (ثم) إظهار للتصوير البليغ الذي قدّمته الآية لحالة راكب الدابة والفُلك وحصول الاستقرار له على ظهورها فإذا تم ذلك حصل منه ذكر الله كاملاً.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ [الحجرات: ١٥]

يقول ابن ريّان: ما فائدة دخول حرف التراخي في الآية وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارناً للإيمان لا تراخي بينهما في الزمان؟

وأجاب بأنّ من وجد منه الإيمان ربما اعترضه الشيطان أو بعض المضلّين بعد ثلج الصدر فشكّكه وقذف في قلبه ما يثلم يقينه، أو نظر هو نظراً غير سديد يسوقه إلى الشكّ، ثم يستمر على ذلك لا يطلب له مخرجاً، يوصف المؤمنون حقّاً بالبعد عن هذه الموبقات، فحَسُن المجيء بحرف التراخي، كقوله تعالى: (ربنا الله ثم استقاموا)[١] .

وهذا السر البلاغي للتعبير بـ (ثم) في الآية ذكره الزمخشري[٢].

ولا يخفى ما فيه من إبراز سمة ثبات الإيمان التي هي شرط قبوله، والترغيب في تحقيق كماله والتحذير من الافتتان بما تتشعّب به السبل.

المطلب الثالث: حروف الشرط

قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]

عبّر في الآية بحرف الشرط، قال ابن ريّان: مع أنّ إكراههن على الزنا حرام في كل حال.

وأجاب من وجهين:

الأول: إنما ذكر الشرط؛ لأنّ الإكراه لا يتصور إلا عند إرادة التحصن لأنّ الأَمة إذا لم ترد التحصّن فإنها تزني بالطبع دون إكراه.

الثاني: (إنْ) بمعنى (إذ) كقوله تعالى: (وذروا ما بقي من الربا إنْ كنتم مؤمنين)[٣] .

وهذا الكلام لابن ريّان في سر التعبير بأداة الشرط (إنْ) في هذه الآية قريب من كلام الزمخشري والبيضاوي[٤].

وينتقد أبو السعود هذا التعليل الذي يقف عند أبجديات المنطق دون التفتيش عن عميق أسرار البيان فيقول: " فيهِ من زيادةِ تقبيحِ حالهم وتشنيعهم على ما كانُوا عليهِ من القبائحِ ما لا يَخْفى، فإنَّ مَن له أدنى مروءةٍ لا يكادُ يرضى بفجور من يحويهِ حرمُه من إمائهِ فضلاً عن أمرهن به أو إكراههن عليه لا سيما إرادتهنَّ التَّعفف.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٢٨.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٣٧٧.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٧٩.

(٥) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٢٣٩؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٠٦.

فتأمَّلْ ودَعْ عنكَ ما قيلَ من أنَّ ذلكَ لأنَّ الإكراه لا يتأتَّى إلا مع إرادة التَّحصُّنِ، وما قيل من أنَّه إنْ جُعل شـــرطاً للنَّهي لا يلزم من عدمِه جوازُ الإكراه لجوازِ أنْ يكون ارتفاعُ النهي لامتناع المنهيِّ عنه، فإنَّهما بمعزلٍ من التَّحقيق"(١).

المطلب الرابع: حروف الموصول

قال تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ [البلد: ٣]

وهنا يسأل ابن ريّان: لِمَ لَمْ يقل: ومَنْ ولد، والمولود ممن يعقل.

وأجاب بأنّ في (ما) من الإبهام ما لم يكن في (مَنْ) فقصد به التفخيم والتعظيم كأنه قال: وأي شيء عجيب ولد (٢) .

وهذا السر البلاغي للتعبير بـــ (ما) دون (من) في هذه الآية ذكره المفسرون(٣).

وإذا كان سر التعبير القرآني هنا بـــــ (ما) التي لغير العقلاء دون (من) التي للعقلاء هو التفخيم، فإنّ في ذلك تصوير بليغ لتكريم الإنسان والتعجب مما ولد وتعظيم شأنهم تبعاً للإبهام الذي تفيده (ما).

قال تعالى: ﴿* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾ [العاديات: ٩]

يقول ابن ريّان: هلّا قال: من في القبور. وعبّر بها عمن يعقل.

وأجاب من وجهين:

الأول: لمّا بعثرت القبور كانوا تراباً فكان حكمهم حكم من لا يعقل.

للثاني: المراد الأرض وهي قبور الخلق أجمعين من بني آدم وغيرهم فغلّب من لا يعقل على من يعقل(٤) .

وهذا الجواب هو عين ما ذكر الفخر الرازي في تفسير الآية، وإن أورده ابن ريّان مختصراً وقدّم الآخر على الأول في ترتيب الإيراد ولعل ذلك لقوّة هذا لديه. والحق أنه أشرق وأقرب إلى روح البيان يدرك ذلك من يتأمل عبارة الرزاي في تعليله عندماقال: "إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك، فلا جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء، والضمير الثاني ضمير العقلاء. إن ربهم بهم ولم يقل: إن ربها بها يومئذ لخبير"(٥).

فهذا التبرير يشي إلى مرامي النظم من فتح باب النظر بالتذكير بحالة من الأحوال التي تتكرر لهذا المخلوق الضعيف من كونه ولد لا يعقل ثم ميّز به فكلّف ثم يصير بالموت كحين خلق ثم يعاد له ليحاسب، فلعلّه بهذا التذكير يتّعظ.

(٢) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٦: ١٧٣.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٨٧.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٧٥٤، الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١٦٥، البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٣١٣.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٦١٨، ٦١٩.

(١) الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣٢: ٢٦٣.

المبحث الثاني: بلاغة الكلمة القرآنية في الروض الريّان:

المطلب الأول: اختيار اللفظة المعجمية، والفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة في المعنى

أ – اختيار اللفظة المعجمية والمناسبات القرآنية لها:

قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ٩﴾ [المائدة: ٩]

يقول ابن ريّان: لم يقل: وعملوا السيئات. والغفران يكون لفاعل السيئات.

وأجاب بأنّ كلّ أحد لا يخلو من سيئة صغيرة أو كبيرة، وإن كان ممن يعمل الصالحات وهي الطاعات، فالمعنى من عمل الصالحات غفرت سيئاته لقوله تعالى: (إنّ الحسنات يذهبن السيئات)[١].

ويلحظ المتأمّل مناسبة اختيار الكلمات القرآنية للسياق حيث قال الله: (لهم مغفرة) وهذا يعود على المؤمنين الذين يعملون الصالحات فتغفر سيئاتهم كما ذكر ابن ريّان.

ولا يخفى أن المؤلف يشير من طرف خفي لبلاغة إيجاز الحذف وقرينته وأغراضه وإن لم يصرّح بذلك، فالقرآن كتاب هداية يذكر ما هو أصلح لهذا المقصد فاختار إبراز (الصالحات) وطوى (السيئات) التي لا يخلو منها طبع المخلوق الناقص والتي دلّت عليها قرينة لفظية هي ال(مغفرة) كما ذكر ابن ريّان.

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ [التوبة: ٣٥]

وهنا يسأل ابن ريّان: ما الفائدة في ذكر هذه الأعضاء دون غيرها؟

وأجاب من وجهين:

الأول: إنّ الفقير إذا سأل الغني شيئاً منهما زوى وجهه عنه فإذا ألحّ عليه أعطاه جنبه، فإذا زاد عليه في المسألة لوى ظهره، فجوزيت هذه الأعضاء بالنار مكافأة لها في منع الفقير عند السؤال.

الثاني: الفائدة في ذكر هذه الأعضاء دون غيرها أنّ العذاب يشمله من جميع جهاته الأربع، فكيفما تحرّك يمنة ويسرة وأماماً ووراءاً وجد العذاب شاملاً له[٢] .

وقريب من هذه الفائدة لذكر هذه الأعضاء دون غيرها ما ذكره المفسرون[٣].

وما ذكره ابن ريّان من أوجه مناسبة اختيار الكلمات القرآنية هنا مناسب للسياق وتتجلى فيه الأغراض البلاغية لهذا الاختيار في ذكر أعضاء الغني التي يشملها العذاب بسبب منعه للفقير عند سؤاله.

ويلحظ من الأوجه التي ذكرها ابن ريّان الإشارة إلى تحقق العدل الإلهي في أن الجزاء وقع على الأعضاء التي عصت دون غيرها وأنه محيط بها لا فكاك وهو ما يفيده شمول الجهات، ما يعني أن

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٣٤.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٩٣.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٢٦٨؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٦: ٣٩؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣ :٨٠؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ٥: ٤١٢، ٤١٣.

تحقق وقوعه ثابت لا مناص عنه، وأرى أن هذا التعليل المحكم المتكامل استوفى مغزى النظم في تفظيع هذه المعصية والتنفير منها، وإن لم يصرّح به ابن ريّان على عادته الملازمة له في أكثر الشواهد، ولهذا يمكن القول بأنه ينشط في المقدمات ويضعف في النتائج كسمة من سمات عرضه.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]

يقول ابن ريّان: ما الحكمة في وصفه تعالى بقوله: (الذي يتوفّاكم) دون غيره؟

وأجاب من وجوه:

الأول: المراد للذي خلقكم ثم يتوفاكم ثم يعيدكم، واكتفى بقوله: (يتوفاكم) لأنه أبلغ في الزجر والردع.

الثاني: أنّ خوفهم من الموت كان أشدّ من غيره، فذكر ما ينبههم عليه.

الثالث: أنهم استعجلوا العذاب بدليل قوله تعالى: (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم)، وقوله: (ثم ننجي رسلنا) فنبههم بقوله: (يتوفاكم) وتنقطع آمالكم من هذه الحياة الدنيا[١] .

وهذه الوجوه في سر التعبير القرآني بقوله: (الذي يتوفاكم) ذكرها الفخر الرازي[٢].

ولا تخفى هنا بلاغة إيجاز الحذف التي أبرزت اختيار كلمة (يتوفاكم) وبلاغتها التي تمثلت في تصوير قوة التمكن منهم وأنهم صائرون إليه لا محالة علاوة على ما فيها من ترهيب وتخويف بما ينتظر الناس بعد الموت وبعد مفارقة الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]

اختار التعبير القرآني في سياق قصة يوسف عليه السلام: (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن)، وهنا يقول ابن ريّان: ولم يقل: أخرجني من الجبّ مع أنه كان أقرب إلى الهلاك.

وأجاب من وجوه:

الأول: أنه لو ذكر إخراجه من الجب لكان فيه تذكار بما فعله إخوته وتوبيخ لهم.

الثاني: أنه لما خرج من السجن أفضى به الحال إلى الملك، ولما خرج من الجب أفضى به الحال إلى الاسترقاق والبعد عن أبيه ووقوعه في التهمة، فما كان ذلك مما يرضاه.

الثالث: كان خروجه من الجب قد بعد عهده به، وخروجه من السجن قريباً، وقد حصل بسببه الملك له، وبسبب الملك حضر إخوته إليه للكيل، وبسبب الكيل اجتمع بأبيه وأقاربه[٣] .

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١١٣، ١١٤.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٧: ٣٠٨.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٥٥، ١٥٦.

والملحوظ أن بين التعليل الثاني والثالث تشابه لدرجة يمكن أن يستغنى بأحدهما عن صاحبه، وقريب من الوجه الأول قول البيضاوي: "ولم يذكر الجب لئلا يكون تثريباً عليهم"(١).

وجميع أوجه مناسبة التعبير القرآني بالسجن دون الجب التي ذكرها ابن ريّان جاءت ملائمة لسياق قصة يوسف عليه السلام، ولا يخفى ما فيها من قوة التصوير البليغ لشكر النعمة الذي هو دأب أهل الله وخاصته.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤]

يسأل ابن ريّان: (قال يا بنؤم) ولم يقل: يا ابن أبي، ولا: يا أخي. ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنّ المقام مقام تلطّف ورحمة فذكر هارون عليه السلام لفظ الأم لأنه أبلغ في الترفّق والتلطّف والترحّم(٢) .

وهذا التعليل لاختيار الكلمة القرآنية (الأم) دون (الأب) و (الأخ) في غاية الروعة والجمال، فالسياق في خطاب هارون لموسى عليهما السلام وهو كما ذكر ابن ريّان في مقام الترحّم والتلطّف وهو ما يناسبه ذكر (الأم).

قال تعالى: ﴿يَبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]

يقول ابن ريّان: قال: (يأت بها الله) ولم يقل: (يعلمها الله) ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنّ الإتيان بها أبلغ من العلم، لأنّ من يعلم الشيء ولا يقدر على إظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون من يعلمه ويظهره لغيره على رؤوس الأشهاد(٣).

وهذا الجواب عن التعبير القرآني (يأت بها الله) ذكره الفخر الرازي(٤).

ولا يخفى دلالة اختيار الكلمة القرآنية (يأت) دون (يعلم) على كمال قدرة الله تعالى وإحاطته وقوته وعلمه حيث يشمل الإتيان بالشيء العلم به والقدرة على إظهاره. كما تظهر مناسبة السياق القرآني هنا لهذا المعنى اللطيف والمغزى البلاغي الأمر الذي يجده المتأمّل في فاصلة الآية الكريمة (إن الله لطيف خبير).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]

وهنا يتساءل ابن ريّان: ما المناسبة بين قوله: (ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا)؟

وأجاب بأنّ في ذلك نكتتان لطيفتان:

(٢) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٧٧.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٥٣.
(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣١٩، ٣٢٠.
(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ١٢١.

الأول: إنّ الملائكة لما شاركوا بني آدم في الإيمان واطلعوا على أحوالهم وإتيانهم بالطاعات مع ما ركّب فيهم من الشهوة قصدوا الإحسان إليهم فاستغفروا لهم.

الثاني: فيه تنبيه على أنّ الاشتراك في الإيمان يدعوا إلى النصيحة، ويبعث على الشفقة وإن تفاوتت الأجناس وتباعدت الأماكن، فإنه لا تجانس بين ملَك وإنسان، ولا بين سماوي وأرضي، ولما جاء جامع الإيمان جاء معه التجانس الكلي والتناسب الحقيقي، حتى استغفر من حول العرش لمن فوق الأرض(١).

والنكتة الثانية التي ذكرها ابن ريّان في وجه المناسبة القرآنية هنا ذكرها الزمخشري(٢).

ب - الفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة في المعنى:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]

يقول ابن ريّان: والتولّي والإعراض واحد.

وأجاب بأنّ المعنى تولّوا عن الوفاء بالميثاق، وأعرضوا عن الفكر والنظر، وهما متغايران (٣).

وللذي يظهر حضور الفرق اللغوي بين الألفاظ المتقاربة في المعنى هنا وهي (التولي) و(الإعراض) وأنّ لكل كلمة قرآنية معناها الخاص المناسب للسياق، وقد أشار ابن ريّان إلى ذلك دون أن يعرب عن النوع البلاغي للذي لفت النظر إليه وهو إيجاز الحذف حيث حذف الجار والمجرور في الموضعين، ولعل السر البلاغي وراء الحذف هنا هو المبالغة في تصوير شدة تركهم وهجرانهم لسبيل الهدى والحق بسبب توليهم وإعراضهم، فتناسب الحذف للأمر الذي تولوا عنه وأعرضوا عنه مع ذلك الهجر والترك.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ١ - ٢]

وهنا يسأل ابن ريّان: (ولم يجعل له عوجاً. قيّماً) ما الفائدة في نفي العوج وإثبات الاستقامة وفي إحداهما غنى عن الآخر؟

وأجاب بأنّ فائدته التوكيد، فربّ مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السّبر والتصفّح(٤) .

وقد نصّ الزمخشري عند تفسير الآية على هذا السر(٥).ولا تخفى بلاغة الفرق بين الكلمات المتقاربة في المعنى هنا التي تتمثل في التوكيد الذي أشار إليه ابن ريّان، فقد وصف الكتاب بنفي

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٨٤.
(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ١٥٢، ١٥٣، أبو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ٢٣٨.
(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٥.
(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢١٧.
(٦) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٧٠٢.

العوج عنه وأكّد ذلك بإثبات الاستقامة له، وفي هذا تصوير بليغ لعظمة هذا الكتاب الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمٗا ٧٥﴾ [الفرقان: ٧٥]

يقول ابن ريّان: (ويُلقّون فيها تحية وسلاماً) هما بمعنى واحد فما الفائدة في العطف؟

وأجاب بأنّ التحية سلام بعضهم على بعض، والسلام سلام الله، وسلام الملائكة، كقوله تعالى: (سلام قولاً من ربّ رحيم)، وقيل: إذا اتحد المعنى واختلف اللفظ جاز العطف، كقوله تعالى: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً)[١] .

وتبدو هنا بلاغة الفرق بين الألفاظ المتقاربة في المعنى وهي التحية والسلام، وقد أحسن ابن ريّان في محاولة التفريق بينهما مستعيناً بتوجيه النص بالنص، وأحسن في التفريق وفتح باب التأمل في هذا الذي عدّه البديعيون من الترقّي.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: ١٤]

يقول ابن ريّان: (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً) فسّر العدد أولاً بـــ (سنة) ثم ثانياً بـ (عام). وأجاب من وجهين:

أولاً: خولف بين اللفظين استثقالاً لتكرير لفظ واحد لمعنى واحد.

الثاني: أنّ العرب تعبّر عن سنة القحط التي تصيبهم فيها الشدائد بالسنة، يقولون: أصابتنا سنة، فلما كان عمر نوح عليه السلام مشتملاً على ما قاساه من أذى قومه، وشدائد تعذيبهم له، وصبره عليهم، حسن تفسير عمره بالسنة، وأما الخمسون الناقصة من الألف فإنه لم يكن فيهم شيء من الأذى والشدائد، ففسّر عددها بالعام، وهو لطيف حسن[٢] .

والوجه الأول قريب مما ذكره الزمخشري حيث قال: "فإن قلت: فلم جاء المميز أوّلاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك"[٣]. وكذلك ذكره البيضاوي قال: "واختلاف المميزين لما في التكرير من البشاعة"[٤].

والذي يظهر أنّ التعليل الثاني الذي حسّنه ابن ريّان هو الأوجه وذلك لحصول المناسبة المعنوية فيه، وبه يتحقق الغرض البلاغي من التعبير القرآني، لما التعليل الأول للذي ذكره بعض المفسرين وهو اجتناب التكرار للفظ الواحد فهو تعليل لفظي، يتناسب واحتفاء المعتزلة بالألفاظ، وهو وإن أفاد التخفيف فإنه لا يفي بالغرض البلاغي من التعبير.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٨٣، ٢٨٤.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٠٦.
(٤) الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤٤٥، ٤٤٦.
(١) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٩٠.

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ [ق: ٣١]

يقول ابن ريّان: معناه: قربت، فقوله: (غير بعيد) مفهوم منه فهو تكرار.

وأجاب بأنّه ذُكر لزيادة التأكيد، كقولهم: هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل، ليكون إثبات الحكم بالإثبات والنفي مشتملاً على الضدّين(١).

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني هنا ذكره المفسرون(٢).

ولا تخفى بلاغة النظم القرآني التي أشار إليها ابن ريّان في هذا السياق وهي زيادة التأكيد، أي تأكيد قرب الجنّة للمتقين كرامة لهم باستيعاب كل طرق الإبانة الممكنة في التعبير ما حمل النظم على الإتيان بلفظين أحدهما بالإثبات (وأزلفت) والآخر بالنفي (غير بعيد).

قال تعالى: سمحمَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢سجى [النجم: ٢]

يقول ابن ريّان: الضلالة والغواية واحد، فما الفائدة في عطف أحدهم على الآخر؟

وأجاب بأنّ المراد: ما ضلّ في قوله ولا غوى في فعله، وقيل: الضلال ضده الهدى، والغواية ضدها الرّشد، فهما متغايران، وقيل: هما بمعنى ولحد، وإذا اتفق المعنيان واختلف اللفظان جاز العطف، كقوله تعالى: (شرعة ومنهاجاً) تفنناً في الكلام أو تأكيداً(٣) .

وهذا الكلام لابن ريّان قريب من كلام الفخر الرازي(٤) .

وقد رتب ابن ريّان الأقوال بحسب وجاهتها وقوّة أبوابها في البلاغة، فالذي يظهر حضور الفرق اللغوي بين الألفاظ المتقاربة في المعنى (ضل) و (غوى) ليكون الكلام من إيجاز الحذف الذي هو من المعاني، ثم أشار إلى نوع من الطباق الذي هو من البديع المعنوي بحديثه عن التغاير الحاصل بين ضدين هما الهدى والرشاد، ثم ختم بالمرجوح.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١]

وهنا يسأل ابن ريّان: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟

وأجاب بأنّ النصر الإغاثة والإظهار على العدو، والفتح فتح البلاد، وقيل: أنّ النصر هو التمكّن من العدو، والفتح هو الأمن من الشدّة، وقرئ بتقديم الفتح على النصر(٥).

والقول الأول ذكره الزمخشري(٦).

وتبدو هنا الفروق اللغوية بين اللفظين المتقاربين في المعنى (النصر) و (الفتح)، تلك التي تصور ببلاغتها مشهد ظَفَر المؤمنين على الكافرين وشمول ذلك المشهد لجميع معاني الظهور والتمكن من الأعداء وفتح البلاد والأمن.

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٣١، ٤٣٢.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٣٨٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٨: ١٤٤؛ أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٨: ١٣٢.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٥٠.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٨: ٢٣٣، ٢٣٤.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٦٤٠.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٨١٠.

المطلب الثاني: صيغ الأسماء: المصدر– اسم المرّة– اسم الفاعل– اسم المفعول .

أ – المصدر:

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]

يقول ابن ريّان: (تنزيل الكتاب) لفظه يشعر أنه نزل منجّماً على سبيل التدريج، ولفظ الإنزال يدلّ على نزوله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟

وأجاب بأنّ المراد بالإنزال نزوله إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم نزّله تنزيلاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم نجماً نجماً، وقيل المراد حكمنا بإنزاله إليك حكماً جزماً وإيصاله إليك، ثم نزّلناه إليك على مقتضى المصالح(١) .

ولَعل الدلالة البلاغية لصيغة الاسم هنا تتمثل في أنّ كلمة (تَنْزِيلُ): مَصْدَرُ نَزَّلَ الْمُضَاعَف وَهُوَ مُشْعِرٌ بِأَنَّهُ أَنْزَلَهُ مُنَجَّمًا. وَاخْتِيَارُ هَذِهِ الصِّيغَةِ هُنَا لِلرَّدِّ عَلَى الطَّاعِنِينَ لِأَنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ مَا تَعَلَّلُوا بِهِ قَوْلُهُمْ: لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً(٢).

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧﴾ [نوح: ١٧]

وهنا يسأل ابن ريّان: مصدر (أنبت) إنما هو الإنبات فكيف قال: (نباتاً).

وأجاب بأنه مصدر (نبت) الدال عليه (أنبت) تقديره: والله أنبتكم فنبتم نباتاً(٣).

وكما سبق فإن الرجل ينشط في إثارة الأذهان للبحث عن الأسرار ويضعف في استنتاجها، ولعل المناسبة البلاغية للتعبير بالمصدر هنا تتجلّى في الاستعارة والإيجاز، يقول البيضاوي: "(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً) أنشأكم منها فاستعير الإنبات للإنشاء لأنه أدلّ على الحدوث والتكوّن من الأرض، وأصله أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ إنباتاً فنبتم نباتاً، فاختصره اكتفاء بالدلالة الالتزامية" (٤).

ب – اسم المرّة:

قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ [الأعراف: ٦١]

يقول ابن ريّان: (ليس بي ضلالة) ولم يقل: (ضلال) كما قالوا.

وأجاب بأنّ الضلالة أخصّ من الضلال، فهي أبلغ في نفي الضلال، كما لو قيل لك: (ألك ثمر) قلت: (ما لي ثمرة) (٥).

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني (ضلالة) ذكره المفسرون(٦).

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٧٣.

(٣) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٣: ٣١٤.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٢٤.

(٥) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٢٤٩؛ وانظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣٠: ٦٥٤، ٦٥٥؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٩: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٦١.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ١١٣؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٤: ٢٩٦؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٨.

ولا يخفى ما في التعبير باسم المرة هنا من الدلالة البلاغية على خصوصية نفي الضلالة لأنه إذا نفي القليل من الضلال فإنّ نفي الضلال كلّه يكون من باب أولى، ولذلك كان نفي الضلالة أبلغ في نفي الضلال كما ذكر ابن ريّان.

ج - اسم الفاعل:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ [الذاريات: ٥]

يقول ابن ريّان: والصادق هو الواعد لا الوعد.

وأجاب بأنّ الصادق هنا يعني المصدوق، كقوله تعالى: (في عيشة راضية) أي مرضية، وقيل: المراد الصدق فإنّ المصدر جاء على وزن اسم الفاعل، كالعاقبة يعني العقبى، واللائمة يعني اللوم[١] .

ويظهر في هذا السياق القرآني بلاغة التعبير باسم الفاعل (صادق) مع إرادة المفعول (مصدوق) وهو مجاز علاقته المفعولية، وقد يراد باسم الفاعل المصدر (الصدق)، يقول الفخر الرازي: "والصَّادق معناهُ ذُو صدقٍ كعيشة راضية، ووصف المصدر بما يوصف به الفاعل بالمصدر فيه إفادة مبالغة، فكما أنَّ من قال فلانٌ لُطْفٌ محض وحِلْمٌ يجب أَنْ يكون قد بالَغ كذلك من قال كلامٌ صادق وبرهانٌ قاهر للخصم أو غير ذلك يكون قد بَالَغَ...."[٢].

ومن بلاغة التعبير القرآني في هذه الآية كما سبقت الإشارة أنّ وَصْف (لَصادِقٌ) مَجَازٌ عَقْلِيٌّ إِذِ الصَّادِقُ هُوَ الْمُوعَدُ بِهِ عَلَى نَحْوِ (فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ)[٣].

د - اسم المفعول:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ۝٤٥﴾ [الإسراء: ٤٥]

يقول ابن ريّان: كان اللائق أن يقول: (حجاباً ساتراً) أي يسترك عن أعينهم.

وأجاب بوجوه:

الأول: قد جاء مفعول بمعنى فاعل كما جاء فاعل بمعنى مفعول، كقولك: فلان ميمون ومشؤوم، و(ماء دافق).

للثاني: كما جاء لابن وتامر، أي ذو لبن وذو تمر، كذلك جاء في اسم المفعول، فيكون معناه ذو ستر، يقال: رجل مرطوب أي ذو رطوبة، ومكان مهول أي ذو هول.

الثالث: أنّ ذلك الحجاب يخلقه الله في عيونهم يحجبهم عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك الحجاب لا يراه أحد فهو مستور.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٣٤.

(٣) الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٨: ١٦٢.

(٤) انظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٦: ٣٤٠.

الرابع: أنّ ذلك الحجاب هو الطبع للذي على قلوبهم عن أن يدركوا لطائف القرآن ومحاسنه وفوائده وذلك مستور غير مرئي بحاسة البصر(١) .

وهذه الوجوه للتعبير القرآني باسم المفعول (حجاباً مستوراً) ذكرها المفسرون(٢).

ولا يخفى ما في هذه الأوجه التي ذكرها ابن ريّان من دلالات بلاغية للتعبير القرآني في هذا السياق، فالوجه الأول أشار إلى المجاز الذي علاقته الفاعلية، والوجه الثاني فيه إيجاز للاكتفاء بالتعبير بكلمة عن كلمتين، والوجهان الأخيران ذكر فيهما للدلالة المعنوية للحجاب المستور. إذن كلها أوجه بلاغية وإن لم يسمّها ابن ريّان كعادته المنهجية.

المطلب الثالث: صيغ الأفعال:

أ- المغايرة في صيغ الفعل وإسناده للفاعل:

قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٧٩ – ٨٢]

وهنا يتساءل ابن ريّان: قال في الجواب عن قصة السفينة: (فأردت أن أعيبها)، وقال في الجواب عن قصة الغلام: (فأردنا)، وقال في الجواب عن قصة الجدار: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) لم خولف بين الإرادات في هذه القصص الثلاث؟

وأجاب بقوله: أما الأولى فإنه أضاف العيب إلى نفسه على طريق الأدب مع الله تعالى، كما في قوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: (وإذا مرضت فهو يشفين)، وأما في قصة الغلام فقال: (فأردنا) عبّر عن نفسه بلفظ الجمع، أو عن الواحد المعظّم نفسه، تنبيهاً على ما وصل إليه من علوم الحكمة، والقتل يحتاج إلى مزيد قوّة، فيحتاج الإنسان فيه إلى تعظيم نفسه، وأما في قصة الجدار فقال: (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) لأنّ بلوغ الأشدّ متعلّق بالله تعالى، وهو المتكفّل بمصالح الأبناء(٣).

وهذه الأسرار البلاغية للمغايرة في صيغ التعبير القرآني بالأفعال الثلاثة ذكرها الفخر الرازي(٤).

وقد ظهرت في كل سياق من المواضع الثلاثة الدلالة البلاغية لإسناد الفعل للفاعل كما أشار إليه ابن ريّان في تعليله التعبير القرآني في تلك المواضع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤]

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢١١، ٢١٢.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٦٧٠؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٠: ٣٤٩؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٥٧.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٢٩.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢١: ٤٩٢، ٤٩٣.

يقول ابن ريّان: (إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام) أضاف العلم إلى نفسه في هذه الثلاث من الخمس المغيبات، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين، مع أنّ الخمس سواء في اختصاص الله بعلمها وانتفاء علم العباد بها.

وأجاب بأنه إنما خصّ الأمور الثلاثة بالإضافة إليه؛ تعظيماً لها وتفخيماً ولأنها أشدّ خفاء من ذينك الآخرين، وإنما خصّ ذينك الآخرين بنفي علمهما عن العباد، لأنهما من متعلقاتهم وصفاتهم، فإذا انتفى عنهم العلم بهما كان انتفاء علم ما عداهما عنهم من الأمور الثلاثة المتقدّمة أولى(١).

ولا تخفى الأسرار البلاغية والمناسبات المعنوية من التعبير القرآني هنا في المواضع جميعها، وهي مما تفرد به ابن ريّان إذ لم أجدها عند غيره من المفسرين، وهي من إشاراته إلى استهلاك البيان لكل ما يمكن من أنواع التعبير في موضعه فقد جمع النظم هنا بين الإثبات والنفي للوصول إلى غرض تفرد الله سبحانه بالعلم.

ب - الفعل المجرد والفعل المزيد:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥ – ٧]

وهنا يسأل ابن ريّان: (فسنيسره لليسرى) ما فائدة هذه (السين) الداخلة على الفعل الدالة على التنفيس؟

وأجاب بأنه إنما دخلت على الفعل إشارة إلى الرفق واللطف، وهذا الوعد من الله قطع ويقين به(٢).

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني بالفعل المزيد بالسين ذكره الفخر الرازي(٣).

ج - الفعل المبني للمعلوم والفعل المبني لما لم يسمّ فاعله:

قال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨﴾ [يس: ٢٦ – ٢٨]

يقول ابن ريّان: (قيل ادخل الجنّة) بصيغة الماضي المبني لما لم يسمّ فاعله، ثم جاء بعد ذلك: (وما أنزلنا على قومه من بعده) أظهر الفاعل في (أنزلنا) ولم يبنيه كالأولى. ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بقوله: أما (أنزلنا) فيقتضي حصول نوع من العذاب، فذكر بلفظ الضمير الدال على الهيبة والتعظيم، وأما هنا فاقتضى المقام الإضراب عن ذكر الفاعل ليحتمل الكلام أنّ هذا العبد الصالح تهنّئه الملائكة من غير اقتصار على واحد منهم، بل كل ملَك وكل صالح يمكن أن يقول له: ادخل الجنة، فكان أفخم وأعظم(٤).

وهذا السر البلاغي في بناء الأفعال في التعبير القرآني ذكره الفخر الرازي(٥).

وتظهر هنا للدلالة البلاغية للفعل المبني للمعلوم (أنزلنا) وهي تصوير عظمة الله وكمال قدرته وقوته وقهره، بينما يصور الفعل المبني لما لم يسم فاعله (قيل) رفعة شأن العبد الصالح وعلو منزلته حيث يقال له من كل أحد: (ادخل الجنة) فقد جعله ربّه (من المكرمين).

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٢١.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٩٤.
(٤) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١٨٥.
(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٥١، ٣٥٢.
(١) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٦: ٢٦٨.

ولعل تسمية ابن ريّان للفعل المبني للمجهول بالفعل المبني لما لم يسمّ فاعله تأدّباً مع كلام الله تعالى، يشبه تسمية البلاغيين وأولهم السكاكي للنوع البديعي تجاهل العارف باسم سوق المعلوم مساق غيره.

قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣]

وهنا يسأل ابن ريّان: (وجيء يومئذ بجهنم) ما الفائدة في قوله: (وجيء) مبنياً لما لم يسمّ فاعله، ولم يقل: وجاءت جهنم أو جاء بجهنم.

وأجاب بأنّ القرآن من آدابه إذا ذكر ما يجري مجرى النّعم يذكر اسم الله تعالى كقوله: (جزاء من ربك عطاء حساباً)، وإذا ذكر ما يجري مجرى العذاب ينزّه الله تعالى عن الذّكر في ذلك المقام قال: (جزاء وفلقاً)، ولما كونه لم يقل: وجاءت جهنم، ليدل على أنها جيء بها مقهورة مأمورة كما قال: (وبُرّزت الجحيم لمن يرى)، روي أنه يجاء بها مزمومة بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها حتى تُنصب عن يسار العرش فتشرد شردة لو تُركت لأحرقت أهل الجمع[1] .

ولا يخفى ما في هذا التعليل البلاغي لبناء الفعل لما لم يسم فاعله من إشارة لمشهد العذاب بالنار يوم القيامة وتصوير شدة جهنم، ولم أجد ما ذكره ابن ريّان عند المفسرين.

المطلب الرابع: الفاصلة القرآنية:

أ – فواصل القرآن بأسماء الله الحسنى:

قال تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٨]

يقول ابن ريّان: هلّا قال: الغفور الرحيم؛ ليكون جواب قوله تعالى: (وإن تغفر لهم)؟

وأجاب بوجوه:

الأول: في مصحف عبدالله: (الغفور الرحيم).

الثاني: أنّ العزيز هو الذي لا يغلبه شيء فهو راجع إلى قوله: (إن تغفر لهم).

الثالث: لو قال: (الغفور الرحيم) لفهم أنّ عيسى يشفع فيهم وهو يعلم أنّ الشرك لا يغفر.

الرابع: أنّ عيسى عليه الصلاة والسلام فوّض أمرهم إلى الله تعالى لاطلاعه على بواطنهم وإمكان توبتهم وهو لم يعلم بها[2] .

وثمة أقوال أخرى في تعليل الفاصلة القرآنية هنا، جاء في تفسير ابن جزي: "ما مناسبة قوله: (فإنك أنت العزيز الحكيم)، لقوله: (وإن تغفر لهم) والأليق مع ذكر المغفرة أن لو قيل: فإنك أنت الغفور الرحيم؟ والجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: يظهر لي أنه لما قصد التسليم لله والتعظيم له، كان قوله: فإنك أنت العزيز الحكيم أليق، فإن الحكمة تقتضي التسليم له، والعزة تقتضي التعظيم له، فإن العزيز هو الذي يفعل ما يريد ولا يغلبه

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٨٥، ٥٨٦.

(١) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٣٩، ٤٠.

غيره، ولا يمتنع عليه شيء أراده،فاقتضى الكلام تفويض الأمر إلى الله في المغفرة لهم أو عدم المغفرة لأنه قادر على كلا الأمرين لعزته وأيهما فعل فهو جميل لحكمته.

الجواب الثاني: قاله شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: إنما لم يقل الغفور الرحيم لئلا يكون في ذلك تعريض في طلب المغفرة لهم. فاقتصر على التسليم والتفويض دون الطلب. إذ لا تطلب المغفرة للكفار، وهذا قريب من قولنا.

الثالث: حكى شيخنا الخطيب أبو عبد الله بن رشيد عن شيخه إمام البلغاء في وقته حازم بن حازم أنه كان يقف على قوله: (إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ) ويجعل (فإنك أنت العزيز) استئنافاً وجواب (إنْ) في قوله (فإنهم عبادك) كأنه قال إن تعذبهم وإن تغفر لهم فإنهم عبادك على كل حال"[١].

والذي يبدو لي هو ترجيح القول الأول مما أورده ابن جزي، وفيه يتبين الغرض البلاغي من اختيار الفاصلة القرآنية (فإنك أنت العزيز الحكيم)، وكأنه قريب من الوجه الثاني الذي ذكره ابن ريّان في أجوبته.

قال تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٣﴾ [الأحزاب: ٧٣]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (وكان الله غفوراً رحيماً) ما الفائدة في تخصيص هذا الموضع بهذين الوصفين دون غيرهما من الأوصاف؟

وأجاب بأنّه لما ذكر قبلهما وصفين للإنسان وهما الظلوم والجهول، قابلهما بوصفين لائقين بهما، فالغفور في مقابلة الظلوم،فإنّ الظلم ذنب قوبل بالمغفرة، والرحيم في مقابلة الجهول،فإنّ الجاهل يُرحم لأنه غير عالم بحقائق الأمور[٢] .

وهذا السر البلاغي للفاصلة القرآنية هنا قريب مما ذكره الفخر الرازي[٣].

ولا يخفى ما في الدلالة البلاغية التي ذكرها ابن ريّان من المناسبة المعنوية للسياق القرآني.

ب – فواصل القرآن بغير أسماء الله الحسنى:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: ٧١ – ٧٢]

يقول ابن ريّان: قال في صفة الليل: (بضياء أفلا تسمعون) وقال في صفة النهار: (بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) خصّ السمع بالليل، والبصر بالنهار، ما الفائدة في ذلك؟

(٢) محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، "التسهيل لعلوم التنزيل". تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي، (ط١، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤١٦ ه) ١: ٢٥٢.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٣٣، ٣٣٤.

(٤) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ١٨٩.

وأجاب بأنه لما كان الليل يحصل فيه الهدوء والسكون، كان مظنّة السمع لانقطاع الحسّ فيه وسكون الحركات. فحسن فيه (أفلا تسمعون)، ولما كان النهار بنوره واضحاً حسن فيه (أفلا تبصرون) أي لا مانع لكم عن الإبصار(١).

وأما الزمخشري فيقول: "ومن ثمة قرن بالضياء (أَفَلا تَسْمَعُونَ) لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه البصر من ذكر منافعه ووصف فوائده، وقرن بالليل (أَفَلا تُبْصِرُونَ) لأنّ غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه"(٢).

والذي يظهر أنّ المناسبات المعنوية التي ذكرها ابن ريّان وقبله الزمخشري في بيان السر البلاغي لاختيار الفاصلة القرآنية هنا هي جميعها متناسبة مع السياق القرآني. فقد ناسب الليل (أفلا تسمعون) وناسب النهار (أفلا تبصرون).

المبحث الثالث: بلاغة التراكيب القرآنية في الروض الريّان

المطلب الأول: الخبر والإنشاء

أ – خروج الخبر على مقتضى الظاهر:

ومنه الخبر الإنكاري كقوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يس: ١٤ – ١٦]

وهنا يسأل ابن ريّان: (إنا إليكم مرسلون) و (إنا إليكم لمرسلون) ما الفائدة في تأكيد الثاني باللام وتجريد الأول عنها؟

وأجاب بأنّ الأول كان إخباراً فلم يحتج إلى التأكيد، والثاني جواب إنكار وتكذيب فاحتاج إلى التأكيد(٣) .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره البيضاوي فقال: "وزادوا اللام المؤكدة لأنه جواب عن إنكارهم"(٤).

وقد ناسب الأسلوب الخبري هذا السياق القرآني الذي آثر التوكيد باللام وبالقسم بسبب الإنكار والتكذيب، يقول ابن عاشور:"وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى شِدَّةِ التَّوْكِيدِ بِالْقَسَمِ مَا رَأَوْا مِنْ تَصْمِيمِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ. وَيُسَمَّى هَذَا الْمِقْدَارُ مِنَ التَّأْكِيدِ ضَرْبًا إِنْكَارِيًّا"(٥).

ب – خروج الخبر على خلاف مقتضى الظاهر:

ومن ذلك تنزيل المنكر منزلة غير المنكر، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٥ – ١٦]

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٣٠٢.

(٣) الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤٢٩؛ وانظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ١٢.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٤٩.

(٥) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٢٦٥؛ وانظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٧: ١٦٢.

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٢: ٣٦٢.

يقول ابن ريّان: لأكّد الموت للذي لم ينكره أحد، وجرّد البعث من للتأكيد وكم من منكر له. ثم ذكر سر ذلك بقوله: أنهم لما عاملوا الموت معاملة من لم يمت لذهولهم عنه بجمع الأموال، وبناء البنيان وانشغالهم عنه بملاذ الدنيا وشهواتها، حسن تأكيد الموت تنبيهاً لهم من سنة الغفلة، وجرّد البعث عن التأكيد لوجهين:

إما لأنّ للعطف ربط بين الجملتين، فأفادت الثانية ما أفادته الأولى من التأكيد.

أو لأنّ المخاطبين هم المؤمنون وهم لا يرتابون في البعث(١).

ولا يخفى ما في الجواب من أسرار بلاغية لتنزيل المنكر منزلة غير المنكر التي ناسبت السياق القرآني في هذه الآيات الكريمة، جاء في التحرير والتنوير: "وَأَكَّدَ هَذَا الْخَبَرَ بِـ (إِنَّ) وَاللَّامِ مَعَ كَوْنِهِمْ لَا يَرْتَابُونَ فِيهِ لِأَنَّهُمْ لَمَّا أَعرضُوا عَن التَّدْبِير فِيمَا بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ كَانُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ يُنْكِرُونَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ.

وَتَوْكِيدُ خَبَرِ (ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ) لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ. وَيَكُونُ مَا ذُكِرَ قَبْلَهُ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ دَلِيلًا عَلَى إِمْكَانِ الْخَلْقِ الثَّانِي كَمَا قَالَ تَعَالَى: (أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ) ، فَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى تَقْوِيَةِ التَّأْكِيدِ بِأَكْثَرِ مِنْ حَرْفِ التَّأْكِيدِ وَإِنْ كَانَ إِنْكَارُهُمُ الْبَعْثَ قَوِيًّا "(٢).

وقد أورد ابن ريّان جواباً آخر لا يمت للبلاغة بصلة بل تطمسه صبغة المنطق وهو أمر ابتلي به علماء ذلك العصر.

ج – الإنشاء بأسلوب الأمر:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٦٥]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين)، وانتقالهم من صور البشر إلى صور القردة ليس إليهم، فكيف يصحّ أمرهم بذلك؟ وأجاب بأنّ الأمر في الفعل (كونوا) أمر إيجاد وتحويل لا أمر إيجاب، كما تقول: كن فلاناً، وكقوله: (كن فيكون) (٣).

والحقّ أن هذا الجواب خال من تطلّب السر البلاغي ولو لأنه تأمل لانتهى إلى ما انتهى إليه أبو السعود، فالذي يظهر أن السر البلاغي لأسلوب الأمر هنا هو تصوير سرعة الحدث، يقول أبو السعود: "والمرادُ بالأمر بيانُ سرعةِ التكوين وأنهم صاروا كذلك كما أراده عز وجل" (٤).

قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الطور: ٣٠ – ٣١]

يقول ابن ريّان: (قل تربّصوا) كيف أمرهم بالتربص به صلى الله عليه وسلم وهو حرام؟

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٨: ٢٦.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٣.

(١) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ١: ١١٠؛ وانظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣: ٥٤١.

وأجاب بأنّ ظاهره أمر ومعناه التهديد، كقول الغضبان لعبده: افعل ما شئت فإنّي غير غافل عنه، وليس مراده أمره بالفعل بل تهديده(١) .

وهذا السر البلاغي لأسلوب الأمر ذكره البلاغيون في الأغراض المجازية التي يخرج إليها وهو التهديد(٢) وذكره من المفسرين الفخر الرازي (٣). أما ابن عاشور فيقول: "وَالْأَمْرُ فِي (تَرَبَّصُوا) مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّسْوِيَةِ، أَيْ سَوَاء عِنْدِي تربصكم بِي وَعَدَمُهُ"(٤).

د – المغايرة في الخبر والإنشاء:

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌۢ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤]

يقول ابن ريّان: المنافق كافر، فكيف يحذر أن تنزّل عليه سورة؟

وأجاب بأنه خبر معناه الأمر، أي ليحذر المنافقون(٥) .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني (يحذر المنافقون) ذكره الفخر الرازي (٦).

ويلاحظ المتأمل هنا جميل صنع البلاغيين في معالجتهم للجمل التي لفظها إنشائي ومعناها خبري، وهذه القضية دارت في مباحث علم المعاني ودخلت أعظم أبوابه البلاغية وهو الفصل والوصل(٧).

قال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨٢]

وهنا يسأل ابن ريّان: كيف أمرهم بالضحك والبكاء.

وأجاب بأنه أمر ومعناه الخبر، أي إن ضحكوا في الدنيا قليلاً فسيبكون في الآخرة كثيراً(٨) .

وفي سر هذا التعبير القرآني يقول الزمخشري: "معناه: فسيضحكون قليلاً، ويبكون كثيراً جَزاءً إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره"(٩).

وقال الفخر الرازي: "وَهَذَا وَإِنْ وَرَدَ بِصِيغَةِ الْأَمْرِ إِلَّا أَنَّ مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ بِأَنَّهُ سَتَحْصُلُ هَذِهِ الْحَالَةُ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ: (جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ)"(١٠).

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٤٨.

(٣) انظر: محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة". تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، (ط٣، بيروت: دار الجيل) ٣: ٨٣.

(٤) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٨: ٢١٢.

(٥) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٧: ٦٢.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٩٦.

(٧) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٦: ٩٣؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٨٧؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٠: ٢٤٨.

(٨) راجع باب الوصل والفصل في: الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، ٣: ٩٧.

(٩) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٩٧.

(١٠) الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٢٩٦؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٩١؛ أبو السعود، "إرشاد العقل السليم" ٤: ٨٩.

(١) الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٦: ١١٤.

المطلب الثاني: الحذف والذكر

أ - الحذف والذكر في حروف الجر:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: ٣]

يقول ابن ريّان:ـما للفائدة في زيادة (من) في قوله تعالى: (ومما رزقناهم ينفقون). وهلّاـقال: وما رزقناهم ينفقون؛ لأنّ وصفهم بإنفاق ما يرزقهم أولى من وصفهم بإنفاق بعضه؟

وأجاب بأنّ الفائدة في ذكر (من) إنْ حُملت على التبعيضـية: الكفّ عن الإسـراف والتبذير المنهي عنهما شرعاً، وإنْ جُعلت (من) للبيان زال السؤال (١).

والذي يظهر أنّ ذكر حرف الجر (من) على معنى التبعيض، وذلك للسـر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان وهو الحذر من الإسراف والتبذير، وهذا التعليل لم أجده عند غيره من المفسرين.

قـال تعـالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُـورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡـتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس: ٣٨]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (فأتوا بسورة مثله) وجاء في البقرة: (بسورة من مثله) ما الفائدة في زيادة (من) هناك وحذفها هنا؟

وأجاب بأنه صلى الله عليه وسلم كان أُمّياً لم يطالع كتاباً، ولا تلمذ لأحد، فإذا أتى بمثل هذا القرآن، فأتوا أنتم بسـورة من رجل يسـاوي محمداً في الأُميّة وعدم المطالعة، فحيث حصـل العجز حصـل المعجز، وهذا لا يدل على أنّ السـورة معجز، بل المعجز في ورودها من مثل محمد صـلى الله عليه وسلم، وأما في سورة يونس فبيّن تعالى أنّ السورة نفسها معجز، ليكون المعجز شاملاً لمحمد صلى الله عليه وسلم وللسورة"(٢) .

والذي يبدو أنّ ذكر حرف الجر (من) في سورة البقرة وحذفها في سورة يونس للسر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان، وهو ما لم أجده عند غيره من المفسرين.

قال تعالى: ﴿* قَالَتۡ رُسُـلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَـكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّـمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ [إبراهيم: ١٠]

يقول ابن ريّان: (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) ما معنى دخول (من) في هذا الكلام؟

وأجاب ـبأنّه ـما وردت (من) إلا في خطاب الكفار، كقوله تعالى: (واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم) ، (يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا ـبه يغفر لكم من ذنوبكم) فهي للتبعيض في حق الكفار، وورد الكلام في حق المؤمنين مجرداً عن (من) التبعيضـية (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) إلى أن قال: (يغفر لكم ذنوبكم) فكان ذلك تفرقة بين خطاب الكافرين وخطاب المؤمنين.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٨.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٠٧، ١٠٨.

وقيل: إنما دخلت (من) لتدل على أنّ للذنوب التي بين العباد لا تغفر إلا برضاهم لأنّ حقوقهم متعلقة بهم، وأما الذنوب التي بين الله وبين العبد فهي مغفورة[١].

وهذا الكلام في سر التعبير القرآني (يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم) ذكره المفسرون[٢].

ب – الحذف والذكر في الحروف المصدرية:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: ٢٥]

يقول ابن ريّان: (ومن آيلته أن تقوم السماء والأرض) وقال قبل ذلك: (ومن آيلته يريكم البرق خوفاً وطمعاً) ولم يقل: (أن يريكم)، ما الفائدة في زيادة (أن) في الثانية وسقوطها في الأولى؟

وأجاب بأنه لما كان قيام السماء غير متغيّر أخرج الفعل عن المستقبل، وجعله مقروناً بـ(أن) الدالة على المصدر الثابت، وجرّد آية البرق عن (أن) وأبقاه مستقبلاً دالاً على التجدّد، لأنه يتجدّد زماناً دون زمان[٣] .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الفخر الرازي[٤].

ج – الحذف والذكر في أسلوب الشرط:

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ – ٦٥]

وهنا يسأل ابن ريّان: أدخل اللام في جواب (لو) في قوله تعالى: (ما تحرثون) (لو نشاء لجعلناه)، وجرّد الجملة الأولى عنها والثالثة والرابعة، ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنّه إنما خُصّت جملة الحرث والزرع باللام لنكتة طريفة وهي أنّ هذه الجمل الأربع منها ثلاث لا يشارك البارئ فيها أحد، وهي الخلق (أأنتم تخلقونه) وإنزال الماء (أأنتم أنزلتموه) والنار، فهذه الثلاث متعلقات بالقدرة الإلهية، وأما الحرث فلما كان للإنسان فيه مشاركة ما، حَسُنَ ذكر اللام تأكيداً لدفع الوهم، أي أنكم وإن حرثتم وزرعتم فنحن الزارعون في الحقيقة لا أنتم، لأنّا لو شئنا لأعدمناكم فائدة الحرث والزرع بقدرتنا، وذكر فيه أجوبة غير مرضية[٥] .

وذكر المفسرون في تعليل ذلك أقوالاً أخرى[٦]. ولعل السر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان في الحذف والذكر لـ (اللام) في جواب الشرط هو الراجح.

د – الحذف والذكر في حروف الموصول:

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١]

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٦٦.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٥٤٣؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٩: ٧٢؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٩٤.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣١٤.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ٩٥.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٧٠، ٤٧١.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٤٦٦؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٩: ٤٢٠ – ٤٢٢؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ١٨٢ ، أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٨: ١٩٨ .

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾ [التغابن: ٤]

يقول ابن ريّان: (يسبّح لله ما في السموات وما في الأرض) أثبت لفظ (ما في السموات وما في الأرض) ثم قال بعده: (يعلم ما في السموات والأرض) ولم يقل: (وما في الأرض) ثم قال: (ويعلم ما تسرّون وما تعلنون) أثبت لفظ (ما) في قوله: (وما تعلنون) ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنّ تسبيح من في السموات على خلاف تسبيح من في الأرض كثرة وخلوصاً من الذنوب والمعاصي، ففصل بين التسبيحين المختلفين بلفظ (ما)، وأما حذف لفظ (ما) من قوله: (والأرض) فلأنّ علمه تعالى نظم ما في السموات والأرض نظماً واحداً على وجه واحد، حتى صار علمه تعالى بما تحت الأرضين كعلمه بما فوق السموات، فلا اختلاف في ذلك، وأما إثبات (ما) في قوله: (وما تعلنون) فلما بين الإسرار والإعلان من المخالفة فلم يكن بدّ من إعادة (ما) لتمييز الإسرار عن العلانية، وهو لطيف[١] .

وهذه الدلالات البلاغية اللطيفة التي ذكرها ابن ريّان للحذف والذكر في حرف الموصول (ما) لم أجدها لغيره من المفسرين.

ه - الحذف والذكر في حروف النفي:

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (ما منعك ألا تسجد) ما فائدة زيادة (لا)، فإنّ المعنى: ما منعك أن تسجد؟ كقوله: (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي).

وأجاب بأنّه مثل قوله تعالى: (لئلا يعلم أهل الكتاب)، وفائدتها توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه، كأنه قيل: ما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك إذ أمرتك لأنّ أمري لك بالسجود أوجبته عليك إيجاباً، وحتّمته عليك حتماً[٢] .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الزمخشري[٣].

ولا يخفى ما في هذه الدلالة البلاغية لذكر (لا) النافية من مزيد التوكيد والتحقيق.

و - الحذف والذكر في الألفاظ المفردة:

ومن حذف الألفاظ قوله تعالى: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣﴾ [الأنعام: ١٣]

يقول ابن ريّان: (وله ما سكن في الليل والنهار) والسكون في الليل والحركة في النهار.

وأجاب بأنّه دلّ السكون على الحركة كقوله تعالى: (تقيكم الحرّ) أي الحرّ والبرد، فمعناه: وله ما سكن وتحرّك في الليل والنهار[٤] .

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٩٢.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٥٦، ٥٧.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٨٩؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٧؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ٥: ١٧.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٤٤.

وهذا الكلام قريب مما ذكره المفسرون [١].

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤]

يقول ابن ريّان: (ما وعدنا ربنا حقاً) مع قوله تعالى: (ما وعد ربكم)، أثبت المفعول في (وعدنا) وحذفه في (وعد)، ولم يقل: وعدكم.

وأجاب من وجهين: الأول: حذف المفعول من الثاني لدلالة الأول عليه.

الثاني: قوله: (وعدنا ربنا) يدل على أنّ الله خاطبهم بهذا الوعد، وخطابه تعالى لهم فيه مزيد تشريف بخلاف الكفار، فإنّ خطابه تعالى غير لائق بهم.

وقيل: حذف المفعول ليتناول كل ما وعدهم الله به من البعث والحساب والعقاب وسائر أحوال القيامة [٢] .

والأقوال الأول والثالث ذكرها الزمخشري[٣]، والقول الثاني ذكره الفخر الرازي [٤].

وهذه الأقوال كلها من الأسرار البلاغية في تعليل حذف المفعول في الآية، إلا أنه في أولها ركّز على مسوغ الحذف وهو القرينة اللفظية للحذف، وفي للثاني ركّز على الغرض البلاغي وهو إبراز وتصوير زيادة شرف المؤمنين، وفي الثالث ركّز على الغرض الدلالي وهو إفادة العموم.

قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٥]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (قال سلام) ولم يقل: (عليكم) ما الحكمة في ذلك؟

وأجاب بأنّه سلّم عليهم كما سلّموا عليه، وفي حذف (عليكم) من سلام إبراهيم نكتة حسنة، أنه لما أنكرهم ولما يعلم أنهم من عباد الله المخلصين جوّز أن يكونوا أعداء، فلو قال: سلام عليكم، لكان ذلك أماناً لهم، وأمان الرسول أمان المرسل، فيكون قد فعل أمراً لم يؤذن له فيه، فلذلك اقتصر على قوله: (سلام)[٥] .

وهذا الكلام لابن ريّان قريب مما ذكره الفخر الرازي[٦].

وذهب الزمخشري إلى إفادة الحذف لمعنى آخر يقول: "وأمّا (سَلامٌ) فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف، معناه: عليكم سلام، للدلالة على ثبات السلام، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيّوه به، أخذاً بأدب الله تعالى. وهذا أيضاً من إكرامه لهم"[٧].

(٢) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٢: ٤٩١؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٢: ١٥٦؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ٤: ٤٤٩.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٥٩.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ١٠٦؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٤.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٤: ٢٤٦.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٣٩.

(٧) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٨: ١٧٦.

(٨) الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٤٠١؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ١٤٨؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ٥٥٥.

ووجلهة جواب ابن ريّان تكمن في أن إبراهيم عليه السلام كان قد وقع في شيء من هذا لما استغفر لأبيه فنهي فلم يشأ أن يقع فيما عوتب على مثله.

ومن ذكر الألفاظ قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل: ٢٥]

يقول ابن ريّان: (ليحملوا أوزارهم كاملة) ما الفائدة في ذكر (كاملة)؟

وأجاب بأنّ الفائدة في ذلك الدلالة على أنه لا يخفّف عنهم من العقاب شيء بل يستوفونه، وذلك أنّ الآفات التي تصل إليهم في دار الدنيا لا تكفّر عنهم من سيئاتهم شيئاً، بخلاف المؤمنين فإنه يسقط عنهم بعض العذاب بما يكفّره الله عنهم من سيئاتهم بما يحصل لهم من الآفات(١).

وقريب من هذا الكلام في سر التعبير القرآني ما ذكره الفخر الرازي(٢).

والذي يظهر هنا حضور الغرض البلاغي وهو التوكيد من ذكر اللفظة القرآنية (كاملة) ولكن لم يصرح به ابن ريّان كما صنع في الشاهد السابق.

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦﴾ [الصافات: ٦]

وهنا يسأل ابن ريّان: ما الفائدة في لفظ (بزينة) وهلّا قال: إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب، فكان أخصر؟

وأجاب بأنّ فيه إشارة إلى أنّ السماء الدنيا ليس فيها كواكب، والكواكب فيما فوقها ولكن نور الكواكب يخرق ما فوق السماء الدنيا فيحصل منها زينة لها(٣) .

وهذا السر البلاغي للذي ذكره ابن ريّان في ذكر اللفظة القرآنية (بزينة) لم أجده لغيره من المفسرين.

قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الشورى: ٥]

يقول ابن ريّان: (تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ) ما الفائدة من قوله تعالى: (من فوقهن)؟

وأجاب بأنّ كلمة الكفر إنما صدرت من الذين تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن، من الجهة التي جاءت الكلمة منها، ولكن لما كانت هذه الكلمة عظيمة جعلت مؤثرة في جهة الفوق، فإذا كان تأثيرها في الجهة الفوقية حاصلاً، فبطريق الأولى أن يؤثر فيما تحتها، ونظيره: (يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود) فجعل الحميم شاملاً لأجزائهم الظاهرة والباطنة(٤) .

وهذا الكلام في سر التعبير القرآني ذكره الزمخشري(٥).

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٩٠، ١٩١.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٠: ١٩٧.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٥٦.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٩٣.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٢٠٩، وانظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٧: ٥٧٧.

ولا يخفى هنا أنّ للدلالة البلاغية في التعبير القرآني (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) هي المبالغة، وهنا يلاحظ أن ابن ريّان لا يسمي النوع البلاغي غالباً فقد أصبحت شبه ظاهرة لديه.

قال تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾ [النبأ: ٣٦]

وهنا يتساءل ابن ريّان: قال في جزاء المتقين: (من ربّك) وجرّد جزاء الكافرين منها، ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنه لما ذكر جزاء الكافرين بما أعدّ الله لهم من العذاب لم يذكر لفظ الربّ تنزيهاً له عن الذكر في مقام العذاب، ولما ذكر جزاء المتقين أتى بلفظ الربّ تنويهاً بذكر الإنعام عليهم، وتشريفاً لهم بهذا العطاء الصادر عن ربّ العزّة، وفيه إشارة إلى قول إبراهيم عليه السلام: (وإذا مرضت فهو يشفين)[1] .

وهذا السر البلاغي الذي أورده ابن ريّان هنا لم أجده عند غيره من المفسرين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾ [الشرح: ١ – ٢]

يقول ابن ريّان: (ألم نشرح لك صدرك) ما الفائدة في زيادة (لك) والكلام تمّ بدونها؟

وأجاب بأنّ في زيادتها ما في طريقة الإيضاح بعد الإبهام، كأنه قيل: ألم نشرح لك، ففهم أنّ ثَمّ مشروحاً، ثم قيل: صدرك، فأوضح ما علم مبهماً، وكذلك (ورفعنا لك ذكرك) و (عنك وزرك)[2] .

ولا يخفى هنا أنّ الغرض البلاغي للتعبير القرآني هو التشويق ولكن لم يصرح به ابن ريان بينما ذكره بعض المفسرين، يقول أبو السعود: "وزيادةُ الجارِّ والمجرورِ معَ توسيطِه بينَ الفعلِ ومفعولِه للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ من منافعِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ ومصالحِه، مسارعةً إلى إدخالِ المسرةِ في قلبِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وتشويقاً لهُ إلى ما يعقبُهُ ليتمكَّنَ عندَهُ وقتَ وروده فضلَ تمكّن"[3].

وقريب من كلام ابن ريّان قول ابن عاشور: "وَفِي ذِكْرِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ قَبْلَ ذِكْرِ الْمَشْرُوحِ سُلُوكُ طَرِيقَةِ الْإِبْهَامِ لِلتَّشْوِيقِ فَإِنَّهُ لَمَّا ذُكِرَ فِعْلُ (نَشْرَحْ) عَلِمَ السَّامِعُ أَنَّ ثَمَّ مَشْرُوحًا، فَلَمَّا وَقَعَ قَوْلُهُ: (لَكَ) قَوِيَ الْإِبْهَامُ فَازْدَادَ التَّشْوِيقُ، لِأَنَّ (لَكَ) يُفِيدُ مَعْنًى شَيْئًا لِأَجْلِكَ فَلَمَّا وَقَعَ بَعْدَهُ قَوْلُهُ: (صَدْرَكَ) تَعَيَّنَ الْمَشْرُوحُ الْمُتَرَقَّبُ فَتَمَكَّنَ فِي الذِّهْنِ كَمَالَ تَمَكُّنٍ"[4].

ز – الحذف والذكر في الجمل:

ومن حذف الجمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الليل: ١٢]

يقول ابن ريّان: مقتضى الكلام ذكر الهدى والضلال ليناسب ما تقدّم ممن يسّره لليسرى ويسّره للعسرى، فما باله اقتصر على ذكر الهدى؟

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٤٨.

(٣) ابن ريان، " الروض الريّان"، ٢: ٦٠٠.

(٤) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٩: ١٧٢.

(٥) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٣٠: ٤٠٩، ٤١٠.

وأجاب بأنه هو كما قلت، ولكنه حذف الضلالة اكتفاء بالهدى كما جاء في قوله تعالى في سورة الأعلى: (والذي قدّر فهدى) أراد: وأضلّ، فاكتفى بذكر الهدى عن ذكر الضلال، ولأنه أشرف القسمين، ولأنّ الضدّ يستحضر في الذهن عند ذكر ضدّه[١] .

ولا يخفى حضور هذه المعاني التي أفادها حذف الجملة، كما ذكرها ابن ريّان ولم أجدها عند غيره من المفسرين.

ومن ذكر الجمل قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧]

يقول ابن ريّان: (وما تلك بيمينك يا موسى) ما الفائدة في هذا السؤال وهو أعلم بما في يمينه جملة وتفصيلاً؟

وأجاب بأنّ في ذلك تأنيس موسى عليه السلام، وتخفيف ما حصل عنده من دهشة الخطاب، وهيبة الإجلال عند سماع كلام الله، وقيل: الفائدة فيه أن يتقرر في نفس موسى أنها عصا، ويرسخ ذلك في قلبه فإذا شاهدها وقد انقلبت ثعباناً تحقّق قدرة الله في إظهار معجزته[٢] .

وهذا الكلام في السر البلاغي لذكر هذه الجملة قريب مما ذكره الفخر الرازي[٣]. والتعليل بالتأنيس أو بالتقرير والترسيخ تعليل حسن لطيف.

قال تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨]

وهنا يقول ابن ريّان: لم زاد موسى في الجواب على السؤال وكان يكفيه قوله: (عصى)؟

وأجاب بأنّ المكالمة مع الله تعالى منزلة شريفة، وفيها لذّة عظيمة، فجعل ما زاد على الجواب وسيلة إلى حصول هذا الغرض، فقال: (أتوكؤا عليها) وما بعده[٤] .

وهذا السر البلاغي لذكر هذه الجمل ذكره الفخر الرازي[٥].

وتظهر هنا أيضاً الدلالة البلاغية وراء ذكر هذه الجمل القرآنية في جواب موسى عليه السلام، وهي التي تمثلت في تصوير المنزلة العظيمة لكليم الله موسى عليه السلام.

المطلب الثالث: التعريف والتنكير

ومن التعريف قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠]

يقول ابن ريّان: في جانب المغفرة والرحمة قال: (أنا الغفور الرحيم) معرّفين بأداة التعريف، وفي جانب العذاب عدل عن وصف نفسه بالتعذيب فلم يقل: (أني أنا المعذّب).

وأجاب بأنّ جانب الرحمة يغلب دائماً جانب العذاب لطفاً بالعباد[٦] .

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٩٤، ٥٩٥.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٤٥.
(٤) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٢: ٢٤، ٢٥.
(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٤٥.
(٦) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٢: ٢٥.
(٧) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٧٦.

ويقول البيضاوي: "وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده"[١].

ويبدو هنا السر البلاغي للتعريف بأداة التعريف (أنا الغفور الرحيم) الذي تمثل في تصوير سعة رحمة الله وشمول مغفرته تعالى.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: ٤]

وهنا يسأل ابن ريّان: لم قال: (وهن العظم منّي واشتعل الرأس شيباً) ولم يقل: (وهن عظمي واشتعل رأسي)؟

وأجاب بأنه لما وهن عظمه، وشاب رأسه، أنكرهما لقلّة منفعته بهما، فكأنما غير ذينك العضوين الذين تعرف منهما حصول النفع وزيادة القوة[٢] .

وقال الزمخشري: "ولم يضف الرأس: اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا"[٣].

وتابعه البيضاوي فقال: "واكتفى باللام على الإضافة للدلالة على أن علم المخاطب بتعين المراد يغني عن التقيد"[٤].

وتظهر هنا للدلالة البلاغية للتعريف بـــــ (أل) فيما ذكره ابن ريّان وقد تفرد بتوجيه غلية في النفاسة.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾ [العنكبوت: ٢٣]

يقول ابن ريّان: ذكر الرحمة مضافة إلى نفسه تعالى وجرّد العذاب عن الإضافة، ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنه فيه نكتة حسنة، وهي الإشارة أنّ جانب الرحمة مقدّم على جانب العذاب، إعلاماً لعباده بعموم الرحمة ولزومها له حيث أضافها إلى نفسه[٥] .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الفخر الرازي[٦].

ويظهر هنا الغرض البلاغي للتعريف بالإضافة في قوله تعالى: (رحمتي) الذي أشعر بعموم رحمة الله ولزومها له كما ذكر ابن ريّان.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٤٥﴾ [النجم: ٤٥]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى) ولم يقل: وأنه هو خلق الزوجين، كما قال: (وأنه هو أضحك وأبكى) (وأنه هو أغنى وأقنى) (وأنه هو أمات وأحيا) (وأنه هو ربّ الشعرى) فما الفائدة في ذلك؟

(٢) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢١٣.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٣٤.
(٤) الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤.
(٥) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ٥.
(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٠٨.
(٧) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ٤٣.

وأجاب بأنه إنما زاد لفظة (هو) في هذه المواضع وجرّد الجملة للدلالة على الخلق عنها لأنّ الضحك والبكاء ربما يتوهم متوهّم أنهما بفعل الإنسان، وكذلك الإماتة والإحياء، كما قال الذي حاجّ إبراهيم في ربّه: (أنا أحي وأميت)، وكذلك (أغنى وأقنى) حيث كان الإغناء عندهم غير مستند إلى الله، وكان في معتقدهم أنّ ذلك بفعلهم كما قال قارون: (إنما أوتيته على علم عندي)، وكذلك قوله: (هو ربّ الشّعرى) لأنهم كانوا يستبعدون أن يكون ربّ محمد صلى الله عليه وسلم هو ربّ الشعرى، وأما خلق الزوجين فلم يكن فيه شك لأنه تعالى هو للذي خلقهما من النطفة، ولا يتوهّم أحد لأنه بفعل أحد من الناس، فأكّد المواضع التي توهّموا أنها من أفعالهم بضمير الفصل، وجرّد الخلق عنه لهذه الفائدة[١] .

وقد سبقه الفخر الرازي إلى هذا التوجيه اللطيف عن التعبير القرآني[٢].

ومن التنكير قوله تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: ١]

يقول ابن ريّان: لم ورد لفظ القرآن منكّراً؟

وأجاب بأنّ المراد به التفخيم والتعظيم، أي هو المستحق لذلك[٣] .

وهذا السر البلاغي للتنكير في التعبير القرآني ذكره المفسرون[٤].

ولا تخفى موافقة ابن ريان للبلاغيين في هذا الغرض المشهور من أغراض التنكير وكنت أنتظر منه كعادته أن يثنّي بتوجيه لطيف أخص من هذا الغرض العام.

والذي يظهر هنا أنّ الدلالة المعنوية لتنكير لفظ القرآن هو تفخيم شأنه وتعظيم مكانته فيحصل بذلك الترغيب في الإيمان به واتباع أحكامه وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾ [الروم: ١٥-١٦]

يقول ابن ريّان: قال في حق المؤمنين: (في روضة يحبرون) وقال في حق الكافرين: (في العذاب محضرون)، نكّر الروضة وعرّف العذاب، وأخبر عن المؤمنين بقوله: (يحبرون) بصيغة المستقبل، وعن الكافرين بصيغة الاسم في قوله: (محضرون).

وأجاب عن الأول بأنه أراد بالتنكير (في روضة) تعظيمها كما تقول: لفلان مال وجاه أي كثير وعظيم، وعن الثاني (يحبرون) بصيغة الفعل ليدل على تجدد الحبور، و(محضرون) ليدل على دوام عذابهم[٥] .

ويقول الزمخشري عن تنكير (روضة): "والتنكير لإبهام أمرها وتفخيمه"[٦].

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٥١، ٤٥٢.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٩: ٢٨٠، ٢٨١.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٧١.

(٥) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٥٦٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٩: ١١٦؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٠٦.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣١٢.

(٧) الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤٧١، وانظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٧: ٥٣.

وقريب من كلام ابن ريّان في سر التعبير القرآني هنا ما ذكره الفخر الرازي[١].

ولا تخفى الدلالة البلاغية للتنكير في النظم القرآني وهي التعظيم والتفخيم لروضة المؤمنين، وقد ناسبه السياق القرآني حيث عبّر بالفعل المضارع (يحبرون) الدال على التجدد والحدوث.

قال تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ [البروج: ١ – ٣]

وهنا يسأل ابن ريّان: (وشاهد ومشهود) ورد منكّراً وما قبله معرّفاً، ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنّ المراد من التنكير الإبهام في الوصف كأنه قيل: وشاهد ومشهود لا يُكتنه وصفهما[٢] .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الزمخشري والفخر الرازي[٣].

والذي يظهر أن الغرض البلاغي للتنكير في الآية هنا هو التعظيم المستفاد من الإبهام.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ [الفجر: ١ – ٤]

يقول ابن ريّان: (والفجر. وليال عشر) ما بال الليالي العشر وردت منكّرة من بين ما أقسم الله به. وأجاب بأنّها ليال مخصوصة من بين جنس الليالي، فالعشر بعض منها، أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها[٤].

وهذا الجواب في سر تنكير (وليال عشر) ذكره الزمخشري والفخر الرازي[٥].

وذكر البيضاوي أن تنكيرها للتعظيم[٦].

والذي يبدو أن الدلالة البلاغية للتنكير هنا هي إفادة الخصوصية لليالي العشر وذلك لتعظيم شأنها وفضيلتها، وفي هذا جمع لكلام ابن ريّان وغيره من المفسرين فالنكات البلاغية لا تتزاحم.

قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ [الشمس: ١ – ٧]

وهنا يتساءل ابن ريّان: لم نكّر النفس دون ما نسقت في قوله تعالى:(ونفس وما سوّاها)؟

وأجاب من وجهين:

الأول: أريد بها نفس واحدة بعينها، وهي نفس آدم.

الثاني: هي علمة في كل نفس، ووردت منكّرة تعظيماً لها وتفخيماً كما قال: (علمت نفس ما أحضرت) ، (علمت نفس ما قدّمت وأخّرت) ، (أن تقول نفس يا حسرتى) ، ووردت منكّرة في عدة مواضع لإرادة التعظيم والتفخيم[٧]. وذكر المفسرون أسراراً أخرى لتنكير (نفس) في الآية منها التكثير[٨].

---

(٢) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ٨٥.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٧٤.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٧٢٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١٠٧.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٨٣.

(٦) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٧٤٦؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١٤٩.

(٧) انظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٣٠٩.

(٨) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٩١، ٥٩٢.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٧٥٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١٧٦؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٣١٥.

والذي يظهر أن السر البلاغي للتنكير هنا هو إفادة تعظيم شأن النفس وتفخيمه كما ذكر ابن ريّان، ولكني أضيف أن هذا التعظيم والتفخيم سواء أريد بها نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام أو كانت علمة في كل نفس، ولا يخفى ما ذلك من دعوة للتأمل في خلق الله للنفس، ولا شك أنّ في تعظيمها تعظيم لخالقها سبحانه وتعالى.

المطلب الرابع: التقديم والتأخير

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]

يقول ابن ريّان: (عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم) ثم قال: (بالمؤمنين رؤف رحيم) قدّم (عزيز) و(حريص) على معمولهما، وأخّر (رؤف رحيم) عن معمولهما، وهو (بالمؤمنين).

وأجاب من وجهين:

الأول: في تقديم (بالمؤمنين) فائدة الحصر، يعني لا رأفة ولا رحمة إلا بالمؤمنين.

الثاني: ليناسب رؤوس الآي[١] .

والوجه الأول من أسرار التقديم والتأخير في الآية ذكره الفخر الرازي[٢].

وقال البيضاوي: "(رَؤُفٌ رَحِيمٌ) قدّم الأبلغ منهما وهو الرؤوف لأن الرأفة شدة الرحمة محافظة على الفواصل"[٣].

وللذي يبدو أنّ الغرض البلاغي للتقديم والتأخير في قوله تعالى: (بالمؤمنين رؤف رحيم) هو الحصر كما ذكر ابن ريّان وقبله الفخر الرازي أي تخصيص الرأفة والرحمة بالمؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (عندك بيتاً في الجنة) لم قدّم الظرف على المفعول به؟

وأجاب بأنّ العادة تقديم ما العناية به أتمّ، والعندية هنا مضافة إلى ضميره تعالى فهي أهم، وفيه إشارة إلى المثل في قولهم: (الجار قبل الدار)[٤].

وقريب من هذا الكلام ما ذكره أبو حيان في تفسير الآية[٥].

والذي يظهر أن السر البلاغي لتقديم الظرف على المفعول به هو العناية والاهتمام كما أشار إليه ابن ريان، فلما كان جوار الله هو الأهم عند امرأة فرعون المؤمنة قُدّم على للدار (قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة).

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٠٢.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٦: ١٧٩.

(٤) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٠٣؛ وانظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٤: ١١٤.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٠١، ٥٠٢.

(١) أبو حيان، "البحر المحيط"، ١٠: ٢١٦.

المطلب الخامس: الفصل والوصل

قال تعالى: ﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]

يقول ابن ريّان: ورد: (يسألونك عن الأهلّة)، (يسألونك عن الشهر الحرام)، (يسألونك عن الخمر والميسر)، مجرّدة عن الواو، ثم ورد بعد ذلك: (ويسألونك عن المحيض) مقرونة بالواو، فما الفرق؟

وأجاب بأنّ السؤال عن الحوادث الأول وقع مفرّقاً، وعن الحوادث الثانية وقع في وقت واحد، فجيء بحرف العطف المفيد الجمع (١).

وهذا السر البلاغي الذي ذكره ابن ريّان للفصل والوصل بحرف العطف لم أجده عند غيره من المفسرين.

قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا إِمۡرٗا ٧١﴾ [الكهف: ٧١]

وهنا يسأل ابن ريّان: (فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها) وقال في قصة الغلام: (حتى إذا لقيا غلاماً فقتله) ذكر الفاء في قصة الغلام وجرّد (خرقها) عنها. ما الفائدة في ذلك؟

وأجاب بأنه جعل (خرقها) هو جواب الشرط، وجعل قتله الغلام من جملة الشرط، والجزاء (قال أقتلت) ، والفائدة في ذلك: أنّ خرق السفينة لم يتعقب الركوب، وقد تعقّب القتل لقاء الغلام(٢) .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الزمخشري(٣).

وقال البيضاوي: "والفاء للدلالة على أنه كما لقيه قتله من غير تروّ واستكشاف حال"(٤). وهذا قريب مما ذكره ابن ريّان وقبله الزمخشري.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]

يقول ابن ريّان: (وسيق الذين كفروا) إلى قوله في أهل الجنة: (وفتحت أبوابها) ما الفائدة في زيادة (الواو) في (وفتحت) وحذفها في (فتحت)؟

وأجاب بأنه جعل (فتحت) في صفة النار جواباً لما في (إذا) من الشرط، ليدلّ على أنّ أبواب جهنم كانت مغلقة، ليستمر حرّها على حاله ولا ينقص بفتح أبوابها، ولأنّ وصول أهلها إليها وهي مغلقة الأبواب فيه إهانة لهم وإذلال، وثبتت (الواو) في (وفتحت) في صفة الجنة لأنّ الجواب محذوف، والفائدة في حذفه ليذهب للذهن فيه إلى أنواع الكرامات والنعيم، تقديره: حتى إذا جاؤها وقد فتحت أبوابها دخلوها واطمأنوا ووجدوا من نعيمها كيت وكيت.

قالوا: وأما (الواو) واو الحال، أي جاؤها مفتّحة أبوابها، أو عاطفة جملة على جملة(٥) .

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٧.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٢٧.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٧٣٦.

(٥) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٨٨؛ وانظر: ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ١٥: ٣٧٧.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٧٦.

وهذا الكلام في سر المغايرة في التعبير القرآني ذكره المفسرون(١).

ولا يخفى جمال النظم القرآني في تصـــوير جزاء أهل النار ومزيد إهانتهم لما عبّر بحذف حرف العطف فقال: (فتحت) للذي يدل على وقوفهم وانتظارهم طويلاً لتفتح لهم أبواب النار، بينما أشـــعر مجيئ (الواو) مع أهل الجنة بغلية تكريمهم ولأنه قد تهيئت لهم (وفتحت) فهم لا ينتظرون عند أبواب الجنة ليفتح لهم بل يدخلون مباشرة.

قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: ٣]

وهنا يتساءل ابن ريّان: قال: (وقابل التوب) مقترناً بـــــ (الواو) ثم قال: (شديد العقاب) مجرّداً عنها. ما الفائدة فيها؟

وأجاب بأنّه فيه نكتة حسنة، وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين، بين قبول التوبة ومغفرة ذنبه، وجرّد (شديد العقاب) عن (الواو) لئلا يشاب الغفران وقبول التوبة بشيء من لوازم العقاب، فلم يجمع بينهما بحرف العطف بل جعل الوصف الثالث كالأجنبي منها فجرّده عن واو العطف(٢) .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني قريب مما ذكره المفسرون(٣).

ويظهر هنا حضور الدلالة البلاغية للفصل والوصل بحرف العطف، وهي نكتة حسنة كما ذكر ابن ريّان.

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾ [التحريم: ٥]

يقول ابن ريّان: كيف خلت هذه الصفات السبع من (واو) العطف ودخلت على قوله: (وأبكاراً)؟

وأجاب بأنّ هذه الصفات السبع يمكن اجتماعهنّ في ذات واحدة، فلما قال: (وأبكاراً) عطفهما على قوله: (ثيّبات)، والثيوبة مخالفة للبكارة فلا يجوز أن تكون المرأة ثيّباً بِكراً، فلم يكن بدّ من ذكر (الواو) الدالة على المغايرة(٤). وهذا الكلام في سر التعبير القرآني قريب من كلام المفسرين(٥).

المطلب السادس: الإيجاز والإطناب

ومما وجدته في الإيجاز إيجاز الحذف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: ٩]

(٢) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ١٤٧؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٧: ٤٨٠؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ٩: ٢٢٥؛ الطيبي، "فتوح الغيب"، ١٣: ٤٤٤.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٨١.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ١٤٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٧: ٤٨٥؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٥١؛ أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٧: ٢٦٥.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٠٠.

(٦) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٥٦٧؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣٠: ٥٧١؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٢٢٥؛ ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٢٨: ٣٦١.

يقول ابن ريّان: (والذين تبوؤا الدار والإيمان) كيف يمكن تبوأ الإيمان والتبوء اتخاذ المكان منزلاً؟ وأجاب من وجوه ثلاثة:

الأول: فيه تقدير، أي وأخلصوا الإيمان كقول الشاعر: علّفتها تبناً وماء بارداً.

الثاني: أنهم جعلوا الإيمان مستقراً لهم ومستوطناً لتمكّنهم منه واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك.

الثالث: فيه حذف مضـــاف تقديره: أي دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من (دار الإيمان) ووضع المضاف إليه مقامه لأنّ المدينة دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان(١).

وهذه الأجوبة ذكرها الزمخشري(٢) ، وهي قريبة من كلام الفخر الرازي(٣).

ولا تخفى الدلالة المعنوية لإيجاز الحذف للمضاف في الآية (والذين تبوؤا الدار والإيمان) وتقديره: أي دار الهجرة ودار الإيمان، وفي ذلك بيان أنّ المدينة دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان كما وضـــح ابن ريّان وغيره من المفسرين في الوجه الثالث من أوجه التعليل.

قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر: ٥]

وهنا يسأل ابن ريّان: أين جواب (لو)؟

وأجاب بأنه محذوف تقديره: لما ألهاكم شـــيء عن طلب الآخرة، أو لشـــغلكم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، أو ما اشتغلتم به(٤).

ولا أدري لماذا اكتفى ابن ريّان بهذا عن ســـر الحذف مع أنه مشـــهور في كتب من قبله، جاء في تفسـير الفخر الرازي وجوه تكشـف الأسـرار البلاغية للحذف بقوله:" حَذَفَ الْجَوَابَ لِيَذْهَبَ الْوَهْمُ كُلَّ مَذْهَبٍ فَيَكُونُ التَّهْوِيلُ أَعْظَمَ، وَكَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ عَلِمْتُمْ عِلْمَ الْيَقِينِ لَفَعَلْتُمْ مَا لَا يُوصَـــفُ وَلَا يُكْتَنَهُ، وَلَكِنَّكُمْ ضُلَّالٌ وَجَهَلَةٌ"(٥).

ومن أنواع الإطناب التي ظهرت لي:

أ -عطف العام على الخاص

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: ٨٧]

يقول ابن ريّان: كيف جاز عطف القرآن على السبع المثاني وهي منه، والعطف يقتضي المغايرة؟ وأجاب بأنّ بعض الشـــيء غير كلّه فحصـــلت المغايرة، وهذا من باب عطف العام على الخاص كقوله: (وفاكهة وأبّاً) (٦). وهذا قريب من كلام الزمخشري في أحد معاني الآية، والفخر الرازي(٧).

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٨٠.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٥٠٤؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٥: ٢٠٠؛ أبو حيان، "البحر المحيط"، ١٠: ١٤٣.

(٤) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٩: ٥٠٨.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٦٢٤.

(٦) الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣٢: ٢٧٢.

(٧) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٨٠.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٥٨٨؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٩: ١٥٩؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢١٧.

والذي يبدو أنّ سر الإطناب هنا بعطف العام على الخاص هو تصوير عظمة السبع المثاني والقرآن العظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (والشمس والقمر والنجوم مسخرات) ما الفائدة في إفراد الشمس والقمر بالذكر وهما من جملة النجوم؟

وأجاب بأنّه لا نسلّم أنهما من جملة النجوم، وعلى تسليمه فقد عطف العام على الخاص لما لهما من المنفعة في هذا العالم، فلذلك أُفردا بالذكر أولاً[١] .

وهذا قريب من كلام الفخر الرازي[٢].

ويلاحظ أن ابن الريّان هنا أعرب عن سر هذا العطف خلافًا للشاهد قبله، ويمكن أن أضيف أيضاً في السر ما في العطف هنا من الترغيب في التفكر في مخلوقات الله التي أنعم بها على عباده والإكثار من الحمد والشكر عليها بالقول والعمل، ويكون مجيئها على سبيل التفصيل يستوجب ذلك التفكر والحمد والشكر على كلّ منها.

ب - التكرار

قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣]

يقول ابن ريّان: (ربّنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنّا سيئاتنا)، تكفير السيئات داخل في مغفرة الذنوب، فما فائدة التكرار؟

وأجاب بأنّ الغفران مجرد الفضل، والتكفير محو السيئات بالحسنات (٣).

وجاء في البحر المحيط: "وَقِيلَ: غُفْرَانُ الذُّنُوبِ وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ أَمْرٌ قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، لَكِنَّهُ كُرِّرَ لِلتَّأْكِيدِ، وَلِأَنَّهَا مَنَاحٍ مِنَ السَّتْرِ وَإِزَالَةِ حُكْمِ الذُّنُوبِ بَعْدَ حُصُولِهِ، وَالْغُفْرَانُ وَالتَّكْفِيرُ بِمَعْنًى، وَالذُّنُوبُ وَالسَّيِّئَاتُ بِمَعْنًى، وَجُمِعَ بَيْنَهُمَا تَأْكِيدًا وَمُبَالَغَةً، وَلِيَكُونَ فِي ذَلِكَ إِلْحَاحٌ فِي الدُّعَاءِ" (٤).

والذي يظهر أنّ السر البلاغي لتكرار غفران الذنوب وتكفير السيئات هو تصوير كمال التوبة والإنابة إلى الله والالتجاء إليه في طلب محو الذنوب والسيئات، وليس الغفران والتكفير بمعنى واحد وللذنوب والسيئات بمعنى واحد كما ذكر أبو حيان مع أنه ذكر معانٍ بلاغية منها التكرار للتوكيد والمبالغة وتعميم الستر وإزالة حكم الذنوب بعد حصوله والإلحاح في الدعاء.

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٦١.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٤: ٢٧٥.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٧، ٢٨.

(١) أبو حيان، "البحر المحيط"، ٣: ٤٧٤.

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩]

وهنا يتساءل ابن ريّان: لم كرّر (يخرّون)؟

وأجاب بأنّ ذلك لاختلاف الحالين وهما خرورهم في حال كونهم ساجدين، وخرورهم في حال كونهم باكين، فظهرت فائدة التكرار في ذلك(١) .

وهذا السر البلاغي للتكرار في التعبير القرآني (يخرّون) ذكره الزمخشري والفخر الرازي(٢).

ولا يخفى أنّ هذا الجواب الذي أورده ابن ريّان تحصيل حاصل ليس إلا ، وما أجمل ما ذكره البيضاوي في الدلالة البلاغية، يقول: "كرّره لاختلاف الحال والسبب، فإن الأول للشكر عند إنجاز الوعد، والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله"(٣).

قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٣]

يقول ابن ريّان: السورة مشتملة على ذكر نعم الله وتعديدها، وفي الآيات المقرونة بقوله تعالى: (فبأي آلاء ربكما تكذّبان) ما ليس بنعمة، فكيف لكّد بقوله: (فبأي آلاء ربكما تكذّبان) وذلك مثل قوله تعالى: (كلّ من عليها فان) (سنفرغ لكم أيها الثقلان)، (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام)؟

وأجاب بأنّ هذا التحذير فيه ردع عن المعاصي بما فيه من الزواجر والمواعظ التي تكفّ عن القبائح والسيئات وتبعث على التوبة فهي في الحقيقة من أعظم النّعم(٤).

والذي يبدو أنّ السر البلاغي من التكرار في هذه المواضع من سورة الرحمن هو الترغيب والترهيب، وهذا من أعظم النّعم كما ذكر ابن ريّان ولم أجده عند غيره من المفسرين.

المطلب السابع: خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر

أ – وضع المظهر موضع المضمر:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وهنا يتساءل ابن ريّان: هلاّ قيل: فآمنوا بالله وبي بعد قوله: (إنّي رسول الله إليكم)؟

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢١٥.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٧٠٠؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢١: ٤١٨.

(٤) البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ٢٧٠؛ وانظر: أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ٥: ٢٠٠.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٦٢.

وأجاب بأنه عدل عن المضمر إلى الاسم الظاهر، لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في الالتفات من مزية البلاغة(١).

وهذا الكلام نصّ عليه الزمخشري وقال أيضاً: "وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، لنا أو غيرى، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه"(٢).

ولا يخفى أنّ السر البلاغي لوضع المظهر موضع المضمر في قوله: (فآمنوا بالله ورسوله) ولم يقل: فآمنوا بالله وبي، هو لمناسبة الصفات المذكورة في هذا السياق القرآني وهي (النبي الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته) إضافة لبلاغة الالتفات كما ذكر ابن ريّان وقبله الزمخشري.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٤﴾ [القصص: ٨٤]

يقول ابن ريّان: (فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) كيف ارتباطه بما قبله؟

وأجاب بأنه وضع (الذين عملوا السيئات) موضع الضمير، لأنّ في إسناد عمل السيئة إليهم مكرراً فضل توبيخ وتهجين بحالهم لأنّ معناه: ومن جاء بالسيئة يجزون بعملهم(٣) .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الزمخشري والبيضاوي(٤).

ب - الالتفات بين الضمائر (التكلم والخطاب والغيبة) :

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: ٢٢]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم) ما الفائدة في هذا الالتفات من الحضور إلى الغيبة؟

وأجاب بأنّ الانتقال من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور يدل على مزيد التقرّب والإكرام، كما في سورة الفاتحة: (الحمد لله ربّ العالمين) إلى قوله: (إياك نعبد) كأنّ العبد انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، وهو يوجب علو الدرجة، وكمال القرب من رب العالمين، والانتقال من الحضور إلى الغيبة بالضدِّ من ذلك، كما في هذه الآية، وذلك يدلّ على المقت والطرد والبعد، وهو اللائق بحال هؤلاء، لأنّ من قابل إحسان الله إليه في خلاصه من الشدائد بالكفر والجحود والعود إلى المعاصي كان اللائق به ذلك(٥) .

والاستشهاد على الالتفات بآية الفاتحة مشهور على ألسنة البلاغيين والمفسرين (٦).

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٦٩، ٧٠.

(٣) الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ١٦٧؛ وانظر: أبو حيان، "البحر المحيط"، ٥: ١٩٧.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٣٠٣.

(٥) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٤٣٦؛ البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٤: ١٨٧.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١٠٦، ١٠٧.

(١) انظر: الخطيب القزويني، "الإيضاح في علوم البلاغة"، ٢: ٨٩؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٧: ٢٣٤.

وقد يفيد الالتفات هنا المبالغة والتعجيب لحال الكفار وإلى هذا ذهب الزمخشري فقال: "فإن قلت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلت: المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح"(١).

قال تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢﴾ [المدثر: ٤٠ – ٤٢]

يقول ابن ريّان: مقتضى الكلام: ما سلكهم في سقر، فلم عدل عن الغيبة إلى المخاطب؟

وأجاب بأنه حكاية قول المسؤولين عنهم، لأنّ المسؤولين يلقون إلى السائلين ما جرى بينهم وبين المجرمين فيقولون: قلنا لهم: ما سلككم في سقر(٢) .

وهذا الجواب عن الالتفات هنا ذكره الزمخشري(٣) ، ولكن تعقّبه أبو حيان، جاء في البحر المحيط بعد نقل كلام الزمخشري: " وَفِيهِ تَعَسُّفٌ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّ السَّائِلِينَ هُمُ الْمُتَسَائِلُونَ، وَمَا سَلَكَكُمْ عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ كَمَا ذَكَرْنَا، وَسُؤَالُهُمْ سُؤَالُ تَوْبِيخٍ لَهُمْ وَتَحْقِيرٍ، وَإِلَّا فَهم عَالِمُونَ مَا الَّذِي أَدْخَلَهُمُ النَّارَ"(٤).

وللذي أذهب إليه هو اختيار قول أبي حيان لوضوح دلالته البلاغية للالتفات هنا من الغيبة إلى الخطاب وهي التوبيخ والتحقير المستفاد من سؤال المجرمين عن سبب دخولهم النار مع علمهم بذلك، وفي ذلك زيادة تصوير لسوء مصيرهم ومبالغة في تبكيتهم وتوبيخهم.

ج – الأسلوب الحكيم:

وقد تميز ابن ريان في وصوله لشواهد هذا النوع البلاغي الذي ندر وقوع البلاغيين على شواهد له في القرآن وإن لم يسمه باسمه (الأسلوب الحكيم) كعادته.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٥٧ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه: ٥٧ – ٥٩]

يقول ابن ريّان:(مكاناً سوى قال موعدكم يوم الزينة) سألوا (مكاناً) فأجابهم عن الزمان.

وأجاب بأنّ الحضور في الزمان يتضمن المكان، فهو مطابق معنى، وإن لم يطابق لفظاً، لأنهم لا بدّ لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان بعينه معروف عندهم(٥) .

وهذا الكلام في سر التعبير القرآني ذكره الزمخشري(٦).

ولا تخفى هنا الدلالة البلاغية للأسلوب الحكيم في هذه الآيات الكريمة وهي إفادة التضمن لأنّه كما ذكر ابن ريّان وقبله الزمخشري الحضور في الزمان يتضمن المكان، هذا إضافة لما أفاده التعبير القرآني هنا من الإيجاز في الكلام.

---

(٢) الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٣٣٨؛ وانظر: البيضاوي، "أنوار التنزيل"، ٣: ١٠٩.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٣٦.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٤: ٦٥٥.

(٥) أبو حيان، "البحر المحيط"، ١٠: ٣٣٨.

(٦) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٤٩، ٢٥٠.

(١) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٧١.

قال تعالى: ﴿* وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤]

يقول ابن ريّان: سأله سبحانه وتعالى عن سبب عجلته عن قومه، فأجاب بغيره، فكان المطابق في الجواب أن يقول: طلب زيادة رضاك، والشوق إلى كلامك وإنجاز موعدك.

وأجاب بوجهين:

الأول: قد تضمّن ما واجهه به ربّ العزة شيئين: أحدهما إنكار العجلة في نفسها، والثاني: السؤال عن السبب الحامل عليها، فكان أهمّ الأمرين إلى موسى بسط العذر في نفس ما أنكر عليه، واعتذر بأنه لم يحصل منه إلا تقدّم يسير، لا يعتدّ بمثله في العادة، وليس بيني وبينهم إلا مسافة قصيرة، ثم أردفه بجواب السؤال عن السبب فقال: (وعجلت إليك ربي لترضى).

الثاني: كأنه صلى الله عليه وسلم حار ودهش عند سماع العتاب لما ورد عليه من الهيبة، فأذهله ذلك عن الجواب، فلما ثبّت الله تعالى قلبه عاد إلى ذكر الجواب(١) .

وهذا الكلام في سر التعبير القرآني ذكره الزمخشري والفخر الرازي(٢).

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٨ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ [السجدة: ٢٨ - ٢٩]

يقول ابن ريّان: هم سألوا عن يوم الفتح متى هو؟ فأجيبوا عن غير سؤالهم.

وأجاب بأنّه لما قال الكافرون للمؤمنين: متى يوم الفتح فيقضي بيننا وبينكم استهزاء منهم، أجيبوا بالتشديد المطابق لتكذيبهم واستهزائهم، لا ببيان حقيقة الوقت(٣) .

وهذا قريب من كلام الزمخشري حيث يقول: "فإن قلت: قد سألوا عن وقت الفتح، فكيف ينطبق هذا الكلام جواباً على سؤالهم. قلت: كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح، استعجالاً منهم عن وجه التكذيب والاستهزاء، فأجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولا تستهزؤا، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم، وآمنتم فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم في إدراك العذاب فلم تنظروا"(٤).

د - المغايرة بين الصيغ:

١) المغايرة بين صيغ الفعل والاسم:

قال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: ٧]

وهنا يتساءل ابن ريّان: كيف ورد لفظ (أنعمت عليهم) بصيغة الفعل المتصل به ضمير المخاطب، وورد (المغضوب عليهم) بصيغة اسم المفعول، وورد لفظ (الضالين) بصيغة اسم الفاعل؟ وهلاّ ورد

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٥٠، ٢٥١.

(٣) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٨١، الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٢: ٨٦.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٢٤.

(١) الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ٥١٧.

الكلام بصيغ الفعل في الثلاثة، فكان (أنعمت) و (غضبت) و (أضللت)، أو على صيغ الأسماء، فقال: (صراط المنعم عليهم) و (المغضوب) و (الضالين)؟

وأجاب بأنّ الأدب مع الله تعالى أن يُنسب الخير إليه، وينفى عنه ما عداه، فورد لفظ (الإنعام) متصلاً بضميره تعالى؛ لأنّ نسبة النِّعم إليه تعالى أولى، كما ورد في قصة إبراهيم عليه السلام من قوله: (الذي خلقني فهو يهدين) إلى قوله: (وإذا مرضت فهو يشفين)، ولم يقل: (وإذا أمرضني).

وورد لفظ (المغضوب) بصيغة المفعول، وهم اليهود لقوله: (غضب الله عليهم) لئلا يُنسب الغضب عليهم بعد النعمة إلى الله تعالى، وورد لفظ (الضالين) بصيغة الفاعل، وهم النصارى لقوله تعالى: (قد ضلّوا من قبل) (١) .

وفي هذا يقول أبو السعود: "والعدولُ عن إسناد الغضب إليه تعالى كالإنعام جرَى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها كما في قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} وقوله تعالى: {وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رشدا}"(٢).

قال تعالى: ﴿* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥]

يقول ابن ريّان: (يخرج الحيّ من الميّت ومخرج الميّت من الحيّ) ورد الأول بصيغة الفعل والثاني بصيغة اسم الفاعل.

وأجاب بأنّ قوله: (ومخرج الميّت من الحيّ) عطف على (فالق الحبّ والنّوى) ليكون اسم الفاعل عطف على مثله، وقوله: (يخرج الحيّ من الميّت) ورد كالبيان والتفسير لقوله: (فالق الحبّ والنّوى) لأنّ فلق الحبّ والنّوى عن النبات من جنس إخراج الحيّ من الميّت لأنّ للنّامي في حكم الحيوان،قال الله تعالى: (ويحيي الأرض بعد موتها).

وفيه وجه آخر وهو: إنّ لفظ الفعل يدل على عناية الفاعل بذلك الفعل في كل حين، ولفظ الاسم لا يدل على ذلك لقوله تعالى: (هل من خالق غير الله يرزقكم)، ولم يقل: (رازقكم) لأنه تعالى يرزقهم ساعة فساعة وحالاً فحالاً، فوجب أن يكون الاعتناء بإخراج الحيّ من الميت أكثر من الاعتناء بإخراج الميت من الحيّ(٣) . وهذه الأوجه في سر التعبير القرآني هنا ذكرها الفخر الرازي(٤)، والوجه الأول ذكره الزمخشري(٥).

ولعلّ الوجه المختار هو على كون الفعل يفيد التجدد والحدوث والاسم يفيد الدوام والثبات، وهو السر البلاغي الذي أفادته الآية الكريمة، كما ذكر ابن عاشور(٦).

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٦، ٧.

(٣) أبو السعود، "إرشاد العقل السليم"، ١: ١٩.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٥٠، ٥١.

(٥) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ١٣: ٧٤.

(٦) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٢: ٤٧.

(١) ابن عاشور، "التحرير والتنوير"، ٧: ٣٨٩.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣]

وهنا يتساءل ابن ريّان: هلّا قال: (وليعلمن للذين كذبوا) كما قال: (للذين صدقوا) أو قال: (الصادقين) كما قال: (الكاذبين).

وأجاب من وجهين:

الأول: إنّ اختلاف اللفظ تفنّن في الفصاحة.

الثاني: إنّ الفعل الماضي لا يدلّ على التكرار والثبات، واسم الفاعل يدلّ عليهما، تقول: زيد نفذ أمره، وزيد نافذ الأمر، وهذه الآية نزلت في قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكليف، وقد فارقوا أقواماً مستديمين للكفر والكذب مستمرين عليهما، فناسب أن يقال في حق المؤمنين: (صدقوا) بصيغة الماضي بمعنى أنه وجد منهم الصدق، ويقال في حق الكافرين: (الكاذبين) بصيغة اسم الفاعل المنبئة عن الدوام والثبات، لرسوخ ذلك فيهم، وجاء في سورة المائدة: (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم) لأنه في ذلك اليوم يكون الصدق قد رسخ في قلوبهم، وهو يوم القيامة، ولا كذلك في صدر الإسلام، وهو جواب حسن لطيف[١] .

وهذا الكلام في سر التعبير القرآني هنا ذكره الفخر الرازي[٢].

والذي يظهر أنّ السر البلاغي للمغايرة بين الفعل والاسم يتمثل في الوجه الثاني الذي ذكره ابن ريّان وحسّنه، وهو مأخوذ من إفادة الفعل التجدد والحدوث وإفادة الاسم الثبوت والدوام لأنه هو الذي تتوفر فيه الدلالة المعنوية للتعبير أما الوجه الأول فهو تعليل لفظي.

٢) التعبير بالاسم دون الفعل:

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧﴾ [الإسراء: ١٠٧]

يقول ابن ريّان: (يخرّون للأذقان سجّداً) هلّا قيل: (يسجدون)؟

وأجاب بأنّ المراد المسارعة إلى السجود ساقطين[٣] .

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني هنا ذكره الفخر الرازي[٤].

ولا تخفى دلالة الاسمية في هذه الآية الكريمة على سرعة السجود دون التعبير بالفعل، وفي هذا مبالغة في تصوير حالهم وكأنهم ساقطون إلى السجود كما أشار إليه ابن ريّان.

٣) التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي:

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: ٨]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) وإلى الآن ما حاق بهم، فلم ذكر بلفظ الماضي؟

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٠٤.

(٣) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ٢٧.

(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢١٤.

(١) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢١: ٤١٨.

وأجاب بأنّ إخبار الله تعالى عما يقع بلفظ الماضي لأنه متحقق لا بد من وقوعه،كقوله تعالى: (أتى أمر الله)[١] .

ولا يخفى أنّ السر البلاغي للتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي هنا هو كما ذكر ابن ريّان الدلالة على ثبوت وقوعه وتحققه والجزم بأنه سيحيق بالكافرين ما كانوا به يستهزؤون.

قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١﴾ [الأنبياء: ١]

يقول ابن ريّان: (اقترب للناس حسابهم) كيف وصفهم باقتراب حسابهم وقد مضى من هذا القول قريب من ثمانمائة عام؟ وأجاب بثلاثة أوجه:

الأول: القرب في علم الله تعالى.

الثاني: كلّ آت قريب.

الثالث: أنّ المعاملة إذا كانت إلى سنة، ثم انقضى أكثر السنة، قيل: اقترب الأجل، وفي ذلك دليل على قرب القيامة، لقوله عليه الصلاة والسلام: (بعثت أنا والساعة كهاتين) لأنّ ما مضى أكثر مما بقي[٢] .

وقريب من هذا الكلام في سر التعبير القرآني ما ذكره الزمخشري والفخر الرازي[٣].

٤) المغايرة بين صيغ الفعل المستقبل والفعل الماضي:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾ [لقمان: ١٢]

وهنا يتساءل ابن ريّان: (أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنّ الله غني حميد) أتى في الشكر بصيغة المستقبل، وفي الكفر بصيغة الماضي، ما الفائدة في المخالفة بين الصيغتين؟

وأجاب بأنّ الشكر ينبغي أن يتكرر في كلّ وقت لتكرار النّعم، فصيغة المستقبل أحقّ به، والكفر ينبغي أنْ ينقطع، فمن كفر ينبغي أن يترك الكفر، فصيغة الماضي أحقّ به[٤].

وهذا السر البلاغي للتعبير القرآني ذكره الفخر الرازي[٥].

٥) التعبير بالفعل المستقبل دون الفعل الماضي:

قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: ٨]

يقول ابن ريّان:(وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله) ما الفائدة في مجيء (يؤمنوا) مضارعاً، والكافرون ما نقموا إلا لكونهم آمنوا، فما عذّبوهم إلا على ذنب وقع منهم، ولم يعذبوهم على ما لا يقع منهم مستقبلاً؟

وأجاب بأنّ التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان في المستقبل، ولو كفروا في المستقبل لم يعذّبوهم[٦] . وهذا الكلام في سر التعبير القرآني ذكره الفخر الرازي[٧].

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ١١٧.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٥٦.

(٤) انظر: الزمخشري، "الكشاف"، ٣: ١٠١؛ الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٢: ١١٨.

(٥) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣١٦.

(٦) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٢٥: ١١٩.

(٧) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٧٤، ٥٧٥.

(١) انظر: الفخر الرازي، "التفسير الكبير"، ٣١: ١١٢.

خاتمة البحث:

وفي نهاية هذه الرحلة البلاغية القرآنية وبعد التجوّل في حديقة كتاب "الروض الريّان في أسئلة القرآن" التي تبينت فيها وقفات ابن ريّان مع أساليب البلاغة القرآنية وأسرارها في الذكر الحكيم، مع بيان موقف المفسّرين منها، أعرض فيما يلي خلاصة البحث وما وقف عنده من بلاغة النظم القرآني في هذا الكتاب، ثم أذكر أبرز نتائج البحث.

ففي المبحث الأول تم تناول بلاغة الحروف القرآنية والتي تنوعت فشملت حروف الجر وحروف العطف وحروف الشرط وحروف الموصول.

وفي المبحث الثاني تم رصد بلاغة الكلمة القرآنية من خلال اختيار اللفظة المعجمية والمناسبات القرآنية لها، وكذلك الفروق اللغوية بين الألفاظ المتقاربة في المعنى، ثم الحديث عن صيغ الأسماء سواء المصدر واسم المرة واسم الفاعل واسم المفعول، ثم صيغ الأفعال ويشمل المغايرة في صيغ الفعل وإسناده للفاعل، والفعل المجرد والفعل المزيد، والفعل المبني للمعلوم والفعل المبني لما لم يسم فاعله، ثم الحديث عن الفاصلة القرآنية سواء فواصل القرآن بأسماء الله الحسنى أم بغيرها.

أما في المبحث الثالث فقد تم تناول بلاغة التراكيب القرآنية ومن ذلك أساليب الخبر والإنشاء ويشمل الأسلوب الخبري ومنه الخبر الإنكاري وتنزيل المنكر منزلة غير المنكر، ثم أساليب الإنشاء ويشمل أسلوب الأمر ثم المغايرة في الخبر والإنشاء.

ومن ذلك أسلوب الحذف والذكر ويشمل الحذف والذكر في الحروف والأدوات سواء الحذف والذكر في حروف الجر وفي الحروف المصدرية وفي أدوات الشرط وفي حروف الموصول وفي حروف النفي، ثم الحذف والذكر في الألفاظ المفردة والحذف والذكر في الجمل.

ومن ذلك أساليب التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والوصل والفصل، والإيجاز والإطناب وتناول ذلك إيجاز الحذف وأنواعاً من الإطناب وتشمل عطف العام على الخاص والتكرار.

ومن ذلك أساليب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، ويشمل ذلك وضع المظهر موضع المضمر، والالتفات بين ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، والأسلوب الحكيم، والمغايرة بين الصيغ ويشمل المغايرة بين صيغ الفعل والاسم والتعبير بالاسم دون الفعل والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي والمغايرة بين صيغ الفعل المستقبل والفعل الماضي والتعبير بالفعل المستقبل دون الفعل الماضي.

١- ولعل من نتائج البحث عناية ابن ريّان بشواهد كثيرة لإيجاز الحذف مع عدم تسميته له.

ومن ذلك ما يتضح عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢] يقول: الضلالة والغواية واحد، فما الفائدة في عطف أحدهم على الآخر؟ وأجاب بأنّ المراد: ما ضلّ في قوله ولا غوى في فعله، وقيل: الضلال ضده الهدى، والغواية ضدها الرّشد، فهما متغايران، وقيل: هما بمعنى واحد، وإذا اتفق المعنيان واختلف اللفظان جاز العطف، كقوله تعالى: (شرعة ومنهاجاً) تفنناً في الكلام أو تأكيداً[١] .

(١) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٥٠.

فالذي يظهر حضور الفرق اللغوي بين الألفاظ المتقاربة في المعنى (ضل) و (غوى) ليكون الكلام من إيجاز الحذف للذي هو من المعاني، ثم أشار إلى نوع من الطباق للذي هو من البديع المعنوي بحديثه عن التغاير الحاصل بين ضدين هما الهدى والرشاد..

٢- ومن نتائج البحث أنّ ابن ريّان ينشط في إثارة الأذهان للبحث عن الأسرار ويضعف في استنتاجها، تأملّ في حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: ١٧] يقول : مصدر (أنبت) إنما هو الإنبات فكيف قال: (نباتاً). وأجاب بأنه مصدر (نبت) الدال عليه (أنبت) تقديره: والله أنبتكم فنبتم نباتاً[١] . ولعل المناسبة البلاغية للتعبير بالمصدر هنا تتجلّى في الاستعارة والإيجاز.

٣- ومن نتائج البحث أنّ ابن ريّان ينوع في التعامل مع الأساليب البلاغية فتارة يهيء للنوع دون تحليل وتارة يحلل ولا يتبقى له سوى التسمية وتارة يصرح، من ذلك ما يلحظه المتأمل في حديث ابن ريّان عن قوله تعالى: سمحإِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥سجى [الذاريات: ٥] يقول: والصادق هو الواعد لا الوعد. وأجاب بأنّ الصادق هنا يعني المصدوق، كقوله تعالى: (في عيشة راضية) أي مرضية، وقيل: المراد الصدق فإنّ المصدر جاء على وزن اسم الفاعل، كالعاقبة يعني العقبى، واللائمة يعني اللوم[٢] .

ويظهر في هذا السياق القرآني بلاغة التعبير باسم الفاعل (صادق) مع إرادة المفعول مصدوق وهو مجاز علاقته المفعولية، وهنا لم يعبر عنها ابن ريّان باسمها البلاغي.

ومن ذلك كلامه عن قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الشورى: ٥]

يقول ابن ريّان: (تكاد السموات يتفطرن من فوقهنّ) ما الفائدة من قوله تعالى: (من فوقهن)؟

وأجاب بأنّ كلمة الكفر إنما صدرت من الذين تحت السموات، فكان القياس أن يقال: يتفطرن من تحتهن، من الجهة التي جاءت الكلمة منها، ولكن لما كانت هذه الكلمة عظيمة جعلت مؤثرة في جهة الفوق، فإذا كان تأثيرها في الجهة الفوقية حاصلاً، فبطريق الأولى أن يؤثر فيما تحتها، ونظيره: (يصبّ من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود) فجعل الحميم شاملاً لأجزائهم الظاهرة والباطنة[٣] .

ولا يخفى هنا أنّ للدلالة البلاغية في التعبير القرآني (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) هي المبالغة، وهنا يلاحظ أن ابن ريّان لا يسمي النوع البلاغي غالباً فقد أصبحت شبه ظاهرة لديه.

٤- ومن نتائج البحث ما يلحظه المتأمل من تفرد ابن ريّان بذكر الأسرار البلاغية، كما في حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لقمان: ٣٤].

يقول ابن ريّان: (إنّ الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما في الأرحام) أضاف العلم إلى نفسه في هذه الثلاث من الخمس المغيبات، ونفى العلم عن العباد في الأمرين الآخرين، مع أنّ الخمس

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٢٤.
(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٤٣٤.
(٤) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٩٣.

مجلة كلية الآداب بالوادي الجديد- مجلة علمية محكمة- ديسمبر ٢٠٢٣

سواء في اختصاص الله بعلمها وانتفاء علم العباد بها. وأجاب بأنه إنما خصّ الأمور الثلاثة بالإضافة إليه؛ تعظيماً لها وتفخيماً ولأنها أشد خفاء من ذينك الآخرين، وإنما خصّ ذينك الآخرين بنفي علمهما عن العباد، لأنهما من متعلقاتهم وصفاتهم، فإذا انتفى عنهم العلم بهما كان انتفاء علم ما عداهما عنهم من الأمور الثلاثة المتقدّمة أولى[١] .

ولا تخفى الأسرار البلاغية والمناسبات المعنوية من التعبير القرآني هنا في المواضع جميعها، وهي مما تفرد به ابن ريّان إذ لم أجدها عند غيره من المفسرين وهي من إشاراته إلى استهلاك البيان لكل ما يمكن من أنواع التعبير في موضعه فقد جمع النظم هنا بين الإثبات والنفي للوصول إلى غرض تفرد الله سبحانه بالعلم.

٥- ومن نتائج البحث تسمية ابن ريّان لعادات القرآن بآداب القرآن وقد سبق ابن عاشور في الإشارة إلى ذلك، من هذا ما يلاحظ عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ٢٣﴾ [الفجر: ٢٣] يقول ابن ريّان: (وجيء يومئذ بجهنم) ما الفائدة في قوله: (وجيء) مبنياً لما لم يسمّ فاعله، ولم يقل: وجاءت جهنم أو جاء بجهنم. وأجاب بأنّ القرآن من آدابه إذا ذكر ما يجري مجرى النّعم يذكر اسم الله تعالى كقوله: (جزاء من ربك عطاء حساباً)، وإذا ذكر ما يجري مجرى العذاب ينزّه الله تعالى عن الذّكر في ذلك المقام قال: (جزاء وفاقاً)، ولما كونه لم يقل: وجاءت جهنم، ليدل على أنها جيء بها مقهورة مأمورة كما قال: (وبُرِّزت الجحيم لمن يرى) [٢].

٦- ومن نتائج البحث أنّ ابن ريّان قد يورد في تعليل الأسئلة القرآنية جواباً لا يمت للبلاغة بصلة بل تطمسه صبغة المنطق وهو أمر ابتلي به علماء ذلك العصر. ومن ذلك ما يلاحظ عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون: ١٥ – ١٦]

يقول ابن ريّان: أكّد الموت الذي لم ينكره أحد، وجرّد البعث من التأكيد وكم من منكر له [٣].

٧- ومن نتائج البحث أن أكثر توجيهات ابن ريان تمتاز باللطافة بمعنلها الحقيقي والمجازي من عمق وجدّة وإبداع، وتنمّ عن ذائقة فريدة، ويبدو أنّ شاعريته كان لها أثر كبير على كتابته فقد كان المؤلف أديباً شاعراً وله ديوان شعر.

---

(٢) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٣٢١.

(٣) ابن ريان، "الروض الريّان"، ٢: ٥٨٥، ٥٨٦.

(٨) ابن ريان، "الروض الريّان"، ١: ٢٧٤، ٢٧٥.

ثبت المصادر والمراجع:

- ابـن عاشــور التونســي، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر. "التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد". (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ ه).
- أبو حيان أثير الدين الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان. "البحر المحيط". تحقيق صدقي محمد جميل. (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠ ه).
- أبو الســعود العمادي، محمد بن محمد بن مصــطفى. "إرشــاد العقل الســليم إلى مزايا الكتاب الكريم". (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
- أبو ســعيد ناصــر الدين الشــيرازي البيضــاوي، عبد الله بن عمر بن محمد. "أنوار التنزيل وأســرار التأويل". تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي. (ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ ه).
- أبو عبد الله التيمي الرازي، محمد بن عمر بن الحســن بن الحســين الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري. "التفسير الكبير". (ط٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ ه).
- أبو الفضــــل بن حجر العســــقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد. "الدرر الكامنة في أعيان المائة للثامنة". مراقبة محمد عبد المعيد ضــــان. (ط٢، حيدر آباد، الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢ه).
- أبو القاسم ابن جزي الكلبي الغرناطي، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. "التسهيل لعلوم التنزيل". تحقيق الدكتور عبد الله الخالدي. (ط١، بيروت: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، ١٤١٦ ه).
- أبو القاســم الزمخشــري جار الله، محمود بن عمر بن أحمد. "الكشــاف عن حقائق غوامض التنزيل". (ط٣، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧ ه).
- أبو المحاســن جمال الدين الظاهري الحنفي، يوســف بن تغري بردي بن عبد الله. "المنهل الصــافي والمســتوفي بعد الوافي". تحقيق الدكتور محمد محمد أمين، تقديم الدكتور ســعيد عبد الفتاح عاشــور. (الهيئة المصرية العامة للكتاب).
- أبو محمد بن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسـلم. "تأويل مشـكل القرآن". تحقيق إبراهيم شـمس الدين. (بيروت: دار الكتب العلمية).
- أبو المعالي جلال الدين القزويني الشافعي، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، المعروف بخطيب دمشق. "الإيضاح في علوم البلاغة". تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي. (ط٣، بيروت: دار الجيل).
- جلال الدين الســيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. "معترك الأقران في إعجاز القرآن". (ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨ ه).
- شرف الدين الطيبي، الحسين بن عبد الله. "فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب حاشية الطيبي على الكشاف". مقدمة التحقيق إياد محمد الغوج، القسم الدراسي د. جميل بن عطا. (ط١، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ١٤٣٤ ه).
- الشيخ شرف الدين الحسين بن ريّان. "الروض الريّان في أسئلة القرآن". تحقيق الدكتور عبد الحليم بن محمد السلفي. (ط١، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ١٤١٥ ç).
- صــلاح الدين الصــفدي، خليل بن أيبك بن عبد الله. "الوافي بالوفيات". تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠ه).

References:

−Ibn ʻĀshūr al-Tūnisī, Muḥammad al-Ṭāhir ibn Muḥammad ibn Muḥammad al-Ṭāhir. "al-Taḥrīr wa-al-tanwīr taḥrīr al-maʻná al-sadīd wa-tanwīr al-ʻaql al-jadīd min tafsīr al-Kitāb al-Majīd". (Tūnis : al-Dār al-Tūnisīyah lil-Nashr, 1984 H).

-Abū Ḥayyān Athīr al-Dīn al-Andalusī, Muḥammad ibn Yūsuf ibn ʻAlī ibn Yūsuf ibn Ḥayyān. "al-Baḥr al-muḥīṭ". taḥqīq Ṣidqī Muḥammad Jamīl. (Bayrūt : Dār al-Fikr, 1420 H).

-Abū al-Saʻūd al-ʻImādī, Muḥammad ibn Muḥammad ibn Muṣṭafá. "Irshād al-ʻaql al-salīm ilá mazāyā al-Kitāb al-Karīm". (Bayrūt : Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī).

-Abū Saʻīd Nāṣir al-Dīn al-Shīrāzī al-Bayḍāwī, ʻAbd Allāh ibn ʻUmar ibn Muḥammad. "Anwār al-tanzīl wa-asrār al-ta'wīl". taḥqīq Muḥammad ʻAbd al-Raḥmān al-Marʻashlī. (Ṭ1, Bayrūt : Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī, 1418 H).

-Abū ʻAbd Allāh al-Taymī al-Rāzī, Muḥammad ibn ʻUmar ibn al-Ḥasan ibn al-Ḥusayn al-mulaqqab bfkhr al-Dīn al-Rāzī Khaṭīb al-rayy. "al-tafsīr al-kabīr". (ṭ3, Bayrūt : Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʻArabī, 1420 H).

-Abū al-Faḍl ibn Ḥajar al-ʻAsqalānī, Aḥmad ibn ʻAlī ibn Muḥammad ibn Aḥmad. "al-Durar alkāmnh fī aʻyān al-mi'ah al-thāminah". Murāqabat Muḥammad ʻAbd al-muʻīd ḍān. (ṭ2, Ḥaydar Ābād, al-Hind : Majlis Dā'irat al-Maʻārif al-ʻUthmānīyah, 1392h).

-Abū al-Qāsim Ibn Juzayy al-Kalbī al-Gharnāṭī, Muḥammad ibn Aḥmad ibn Muḥammad ibn ʻAbd Allāh. "al-Tas′hīl li-ʻUlūm al-tanzīl". taḥqīq al-Duktūr ʻAbd Allāh al-Khālidī. (Ṭ1, Bayrūt : Sharikat Dār al-Arqam ibn Abī al-Arqam, 1416 H).

-Abū al-Qāsim al-Zamakhsharī Jār Allāh, Maḥmūd ibn ʻUmar ibn Aḥmad. "al-Kashshāf ʻan ḥaqā'iq ghawāmiḍ al-tanzīl". (ṭ3, Bayrūt : Dār al-Kitāb al-ʻArabī, 1407 H).

-Abū al-Maḥāsin Jamāl al-Dīn al-Ẓāhirī al-Ḥanafī, Yūsuf ibn tghry Bardī ibn ʻAbd Allāh. "al-Manhal al-Ṣāfī wa-al-mustawfī baʻda al-Wāfī". taḥqīq al-Duktūr Muḥammad Muḥammad Amīn, taqdīm al-Duktūr Saʻīd ʻAbd al-Fattāḥ ʻĀshūr. (al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah lil-Kitāb).

-Abū Muḥammad ibn Qutaybah al-Dīnawarī, ʻAbd Allāh ibn Muslim. "Ta'wīl mushkil al-Qur'ān". taḥqīq Ibrāhīm Shams al-Dīn. (Bayrūt : Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah).

-Abū al-Maʻālī Jalāl al-Dīn al-Qazwīnī al-Shāfiʻī, Muḥammad ibn ʻAbd al-Raḥmān ibn ʻUmar, al-maʻrūf bkhṭyb Dimashq. "al-Īḍāḥ fī ʻulūm al-balāghah". taḥqīq Muḥammad ʻAbd al-Munʻim Khafājī. (ṭ3, Bayrūt : Dār al-Jīl).

-Jalāl al-Dīn al-Suyūṭī, ʻAbd al-Raḥmān ibn Abī Bakr. "muʻtarak al'qrān fī Iʻjāz al-Qur'ān". (Ṭ1, Bayrūt : Dār al-Kutub al-ʻIlmīyah, 1408 H).

-Sharaf al-Dīn al-Ṭībī, al-Ḥusayn ibn ʻAbd Allāh. "Fattūḥ al-ghayb fī al-kashf ʻan qināʻ al-rayb Ḥāshiyat al-Ṭībī ʻalá al-Kashshāf". muqaddimah al-taḥqīq Iyād Muḥammad al-Ghawj, al-qism al-dirāsī D. Jamīl ibn ʻAṭā. (Ṭ1, Jā'izat Dubayy al-Dawlīyah lil-Qur'ān al-Karīm, 1434 H).

-al-Shaykh Sharaf al-Dīn al-Ḥusayn ibn ryyān. "al-Rawḍ al-Rayyān fī as'ilat al-Qur'ān". taḥqīq al-Duktūr ʻbdālḥlym ibn Muḥammad al-Salafī. (Ṭ1, al-Madīnah al-Munawwarah : Maktabat al-ʻUlūm wa-al-Ḥikam, 1415 ç).

-Ṣalāḥ al-Dīn al-Ṣafadī, Khalīl ibn Aybak ibn ʻAbd Allāh. "al-Wāfī bi-al-Wafayāt". taḥqīq Aḥmad al-Arnā'ūṭ wtrky Muṣṭafá. (Bayrūt : Dār Iḥyā' al-Turāth, 1420h).